تـــــراجيم

رواية

اسم الكتاب: تــراجيم
تأليف: فاطمة الزهراء الرياض
تصحيح لغوى: عزة أبو الأنوار
رقم الإيداع: 2014/23567
الترقيم الدولي: 978-977-6376-74-8

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

تـــــراجيم

فاطمة الزهراء الرياض

رواية

محاولة إهداء

إلى كلّ من انتحل في يومٍ صفة شاعرٍ أو كاتبٍ حتّى يعيش إنسانيته.

إلى روح «ماجدة» و«يجا».

إليه..إلى آلاف المجهولين الطيّبين الذين لا يصادفهم الحظ والحب ليُكتَب عنهم

«اطلق سحور مدادك يا طيري

بِقِّ السّْترْ

ياكْ السّحرْ حلّلوه أهلْ الشّعرْ؟!

اسْحرْنا..زيدْ اسْحرْ

إنْتَ سحّارْ

سحركْ م لحلالْ..ينفعْ ما يْضرّ

حروفك نورانيّة ونورك روحاني يبْهرْ

روحْكْ ف لحروف تعْصْرْ

ولحروف ف المادّة شاعلة فْتيلةْ السؤالْ

نور مْنوّرْ»

الشاعر الزجال إدريس أمغار المسناوي

بعضُ الوقتِ قد مرّ

قصة قصيرة

كُلُّ ذلك ولا يهمّ.

جاءتا إلى المدينة بصدرين متورّمين، الضجر يملأ فستانهما، همّتا بالسفر على مضض، فكرة الرحلة كانت كابنة زِنا، تناسُل الملل والخذلان كوّنَ قرارًا مُفاجئًا يقضي بالذهاب معًا علّهما تعثُران على أبٍ بارّ بحزنهما.

كُلُّ ذلك.. ولا يهمّ.

في المدينة،الرجال السبعة يشد أحدهم بيد الآخر حتى طوّقا المدينة، السائح يخاله سورًا عظيمًا لولا ملامح الرجولة في النخل، دخلتاها بسلام حتى توسطتا ميدانها..حملقتا في القردة طويلاً، علّقته البيضاء على كتفيها بخفّة؛ امتطى صهوة جيدها، تبول القرد.. قهقهت السمراء، قال صاحبه إن بوله مزيل للنحس.. جربت البيضاء الثعابين ولفّتها جيدًا. السمراء تخاف الثعابين، كان يبدو لها دائمًا كديناصور عملاق مقزز..لطالما حلمت به، وفوبيا الثعابين كانت تداهمها في اليقظة، وحدها الجدة تُفسر الرؤيا بالحسد والغيرة الكبيرين.

كانتا تُحسّان بأُلفة مُتنافرة، وداخل كل صدرٍ منهما مُتورّم بغضب جامح، تصرفاتهما على الأرجح لها صلة بسر ما، تستمتعان بالرحلة، أو حاولتا ذلك، فبدا التغاضي على غباء اللاتفاهم منطقيًّا. في الصداقة الإجبارية نُحسن وضع أقنعة التّحمّل، فالوحدة نخالها ثقيلة الظل في فترة من فترات العُمر.

كُلُّ ذلك ولا يَهُمّ.

وأخيرًا.. تجلسان في مقهى بعدما أنهكهما تردد اختيار مكان مناسب وإستراتيجي في ذات الآن، السفر مع امرأتين مُكتئبتين هو تورط ناعم في الحزن،هو كارتكاب جريمة من نوع آخر.. لا أحد يفهم شعور احتياج حقيبة وطريق بلا وجهة غيرَ امرأة متخمة بالضياع.

هكذا استخلصت السمراء سوء سلوك البيضاء، تمرّدتا على وقار طاولة. الشحوب بدا لامعًا على الأخرى، فيما اكتفت السمراء بإذعان النظر لبقايا كأس شاي متوتر. بقع من الماء المنسكب من يدٍ مُرتجفة. الذباب يمر من حولها في لامبالاة عجيبة، الذباب منشغل بالسُّيّاح والسمراء منشغلة بكلّ هاته الهرطقات، أمامها الصحن المحتضن للشاي الضخم،أوراق النعناع في جوفه كأصيص ورد مبتور الزهر، قطعتا سكر متبقيتين على جنبات الكأس كقش من التبن المصفوف بعناية آلة الحصاد، لا أحد يهشم سنابله يدويًا، هكذا لاكت

المعلومة في رأسها، القطعتين موضوعتين بعناية شديدة، القطعة فوق الأخرى، كان منظرهما وحدهما مُغريًا. تكهّنت من منظر الطاولة تلك أنها لمحتسٍ مصاب بداء السكري، وإلا لما خلّف سكّره هدية؟ثم أنه وحيد، لا كأس آخر.. وحيد مثلها تمامًا.

البيضاء كانت تمسك مجموعة قصصية،عنوانها يدعي الموت، وهي بداخله تدّعي الثقافة.

كُلُّ ذلكَ ولا يهُمّ.

حولهما سُيّاحٌ كُثر لا تُشبهانهم في شيء، أمالت السمراء برأسها تُكمل استكشاف المقهى:

- عجوزان يتبادلان قبلة جافة.

– ثلاثة شباب يتقنون الحديث بالعربية،إلا رابعهم يغوص في لوحته الذكية.

– في أقصى المقهى تركن أسرة سفنها، أشرعة الزوجة مفضوحة، عيناها مفتوحتان ملء الشهوة، تحدجها نظرات الزوج العميقة خلف تلك الضحكات المنفلتة، يعِدها بليلة ساحرة، قالتها عيناه واستمر المشهد الرومانسي متقن الصنع، كانت فتاتهما تسبح في ملكوت ذاك الهدوء العاشق، كالفراشة بجناحين ورديين وشرنقة.

قالت البيضاء بعدما ألقت القبض على السمراء في حالة سراح مطلق في الفضاء:

- الجو هنا أرحم.

ردت بسخرية: أحتاج إلى أجنحة وكتاب.

- ورجُلْ!

قهقهت البيضاء.

النادل يأتي في لحظة حوار كاد أن يكون حميميًا، كان هبوبه ثقيلاً على القلب، المقهى لا يتخصص إلا في صنع ذاك الكأس العملاق من الشاي المدجج ببضع شتلات نعناع، ما يعني-ولا شك- فيه أن الاختيارات ليست بالمتعددة كي يسأل.

البيضاء اختارت كوب ماء، وتذكرت ميزانيتها وهي تقتص من النادل ابتسامته، السمراء كانت قد التهمت كومتي القش المُحلّى، طلبت شايًا، واحتساها الصمت المطبق.

كُلُّ ذلك.. ولا يهمّ.

السمراء تتأهب لاكتشاف فضول مسافر معها هو الآخر.

الفضول كلمة سخيفة حين يتعلق الأمر بلقاء أول مع رجل افتراضي، كلّ التخمينات واردة. البيضاء بدت أكثر حماسًا من السمراء، السمراء متعبة من الرجال، والأزرق الذي ارتدته يُغري السمرة. البيضاء تعيد استكشاف صمتها، تنظر إليها بنصف ابتسامة وعين متورمة، السماء دافئة والقمر يُدخّن لفافة الصبر على مهل.

السمراء قالت إنها أشد ما تكره التأخر عن موعد. البيضاء تحتج وهي تعيد رسم عينيها بكحل يدوي. البيضاء تؤمن أن الرجال تحترق في الانتظار، فيما سيكون من اللذيذ اشتمام رائحة شوائه، بل وسيسهل عليها التعرف عليه من ريحه.. «دعيه، سينضج ريثما نصل».

كان كلامهما خفيفًا، نظرات البيضاء تتحول ليلاً إلى كائن خبيث، السمراء عينها بعفويتها لا تغفل، الأعين تتطاول في لحظة ما على أحاسيس مقموعة، تتحول تلك اللحظات إلى خوف مرعب..مرعب جدًا. في لحظة ما أحستا بالوقت يتقيّأ، تجاهلتاه، الغرفة بالفندق الأنيق تستدعي أن تستمتعا به، صدقًا لم تفعلا.

في آخر اللحظات ترش السمراء عطرها، أمسكت البيضاء به فور انتهاء السمراء، رشت من نفس القارورة، مررته باستهتار عليها، كاد الحنق ينفجر لولا صدر السمراء المتورم الذي يسع الجميع.

العطر مُقدّس، محرّم، والشوكولاتة كذلك..عدا هذين الشيئين،الكل قابل للتفاوض والنقاش، العطر في نظر السمراء قضية شخصية.

كل امرأة بلا عطر هي حتمًا دون روح.

كُلّ ذلك.. ولا يهمّ.

في مقهى «النُّخبة»، مقهى مُعلّق في السماء، كراسيه مُترفة، الألوان تنسحب من البياض إلى السواد، الصور منزاحة باحترافية، النادل كذلك أنيق، وسيم يستلمنا ورواده من الباب.

الزجاج يطوّق النخبة، النساء هنا تدخّن، المكان يعج بعطور باريسية الوجهة، أنف السمراء يعرف هذا جيدًا.

الافتراضي يجلس في الجانب الخلفي من النخبة، يحمل هاتفًا يحيلهما على انشغالاته، أمامه أوراق متسخة بها ما تيسر من عمل أدبي، الأوراق أمامه بدت لكلتيهما كقافلة كلاب تنبح، مطوية على ضجيج مكتوب، لم يكن سلامهما حارًّا، كان تبادل أيادٍ فقط وكلٌّ أرجع يده لدفء جيبه، البيضاء كانت معجبة بالفضاء، كانت تدير رأسها كما فعلت السمراء في المقهى الشعبي.

البصر خادع. هذه المرة المقهى معلق في السماء، ذاك مُعلَّقٌ في ضيعة بها أصيص ورد وقش.

كُلّ ذلك.. ولا يهُمّ.

الافتراضي التَهم البيضاء والسمراء على مهل، كائن يقفز كقرد ميدان الألف دجال وساحر، حكواتي ومحلل نفسي، يرسم بشفتيه أسئلة متهمة بالشذوذ، شفتاه كانتا تمتصان الحديث، مقزز، هكذا بدا للسمراء، مثير للإعجاب للبيضاء، أغضبها السمراء زمام النقاش الذي تصنّع فيه الثقافة، كثر فيه الأدب وقلّ الشعر، تقمصت السمراء دور المغرورة المتعجرفة وراق لها أن تضع له خطًا أحمر كي لا يفسد

عليها بهاء الليلة.

البيضاء اعترفت للسمراء أمام الافتراضي أنها تراها دائمًا متعالية.

السمراء ضحكت لعبقرية الخطة، وأفسحت لهما مجالاً كي ينفردا بعضهما ببعض، خرجا من المقهى فيما انسلّت السمراء منهما بدعوى التعب.

البيضاء قضت وقتًا تكتشف فيه غرابة الافتراضي.

الافتراضي كان مسرحيًا أكثر مما يبدو عليه، مضحكًا ومثيرًا للشفقة.

«الحريق الذي يشب في الغصن الأخضر لا يحرق فقط، إنما يُجهر دخانًا بصاحبه»، تذكرت السمراء هذا المقطع المبتور من ذاكرتها، البيضاء تنام بجانبها ولا تنام..لم تناما.

الصباحُ كان ماكرًا، حلّ بغير موعده، فاجأتهما لعنة السفر والعودة.

كل شيء عاد لأصله، لم تناقشا أمر السفر، لم تتبادلا الحديث عن الافتراضي، لم تهمس واحدة للأخرى أنها ليست معنية بتلك الأشكال، ولم تنتظر الأخرى فسح المجال لتدخل الأولى محل الأخرى.

في الحافلة،اتكأت البيضاء على زجاج النافذة. اتكأت

السمراء على كتف البيضاء وغطت في نوم كسيح.

كل ذلك ولا يهمّ.

يتصل الافتراضي بالسمراء.. لا تجيب.

يعيد الاتصال بالبيضاء..فتجيب.

في مقهى مثبت بالأرض، رأتهما من بعيد يحتسيان شغفًا بثماني درجات على سلم ريختر.

تزلزلت القلوب.

تدمرت كل الأشياء التي لا تهمّ.

بعد شهر:

- كيف حالك؟

- تعبة.

- أنا كذلك مثلكِ، لكني كرهتُ السفر.

تمّت وبحمده.

فصلُ المكان عن الزّمان

الفصل الأول

«تمّت بحمد الله».

آخر عبارة تنهي به ما تكتب، مرّ زمان على قطيعة الإبداع، القلم كان غاضبًا منها جدًّا وإلا لما رحل إلى عوالم الجهل،لقد قبعت ما تيسر من زمن أسيرةً للحظات السعادة التي ما كانت لتمر مرور الكرام، لكن إيمانها الشديد يحذو حذو قناعة، لحظات الفرح تُغتال إن هي كُتبت، والسعادة في قاموسها تُعاش ولا تكتب، هي النعمة حين تغمسنا في اللذات، فما عليك سوى الغوص فيها إلى أبعد نقطة.

كتابة الأفراح لن تكون بتحنيطها إلى عبارات، فالمومياء لن تفي بحق تلك الألوان المئة، الألوان التي نراها في السعادة لا يمكننا تشكيلها كلوحة، نحن نخون السعادة ونغتالها مشوّهة بمجرد محاولتنا سجنها في قفص «كتابة».

الأفراح طائر بهيّ بجناحين يفقد شدوه في الأقفاص الجميلة.

الأحزان.. وحدها تُكتب، وكلّ ما يظل متحشرجًا كغصّة يُكتب، وكل جرحٍ مفتوح بالكتابة يُضمّد، وكُلّ موقف مُخذِل مررت به في الحياة لا يُستهلك..بالكتابة يُهضم.

حتى وإن لم تستطع في يوم أن تقيم توازنها بين كفّتي العمل والهواية، الكتابة كانت لها مخرجًا من الضيق، كتلتها مُهمل،تخفف من أعباء لقمة العيش وتثقل الهواية محبّة.

الكتابة أيضًا كانت لها كمشرط الجرّاح، يجب تعقيم شعورك بالصدق كي تفتح جرحًا ما..عليك كذلك أن تكون دقيقًا ومرهفًا بما يكفي لتحس بالجثة الممددة أمام رحمتك.

****

الشرفة تُطل على جبال عربية، تخال الجبال واحدة لا تختلف من بلد لبلد، خصوصية الجبال العربية كالطود الواحد..كالرجل الواحد..كالأسرار البهية بها من تاريخ النصر والمقاومة ما يجعلها شامخة أبد الدّهر.

هاته الجبال لا كجبال الأطلس.هي تعي أن لا مقارنة بين الحضارتين، موضوع جدال حميمي بينها وبين «إبراهيم»، إنه يستسيغ رؤية فمها حين يصيرُ له عند حدّة النقاش.. يدانْ.

لسانها يطول فقط لحظة اختلاف ثقافي يهُمُّ تداخل بلدين، لم يجمعهما سوى استعمار فرنسي ذي تاريخ.

الشرفة كثغر البيت شهية ومغرية، مصممة بعبقرية. في أحلامها البعيدة كانت تتمنى شرفة كتلك، شرفة لا تفتح لك فقط بابها على الفضاء، إنها شرفة تفتحُ صدركَ بتقنية التشفير، كأنها تعرف كلمة السر حيث يصير صدرك المكبوت كصفحة فيسبوك، على جداره آلاف الشذرات المخطوطة، مليء بالأسرار..بالأصدقاء. بالحكايات.

تفتحُ شرفتها باب صدرها، كل يوم يمتزج النسيم بصفحتها المخبأة بعناية داخل قفصها الصدري.. حين يغضب «إبراهيم» فلا تستطيع إلا أن تجده في الشرفة يزفر غضبه من «سحر» في تلقائية عجيبة، الشرفة تلك تتواطَأ مع الأحزان، وإلا لما يهرع الجميع للشرفة حيث يدّعون فيها العلاج بالتأمل الممتع بذلك المنظر الطبيعي المتفرد؟!

«إبراهيم» يترك البيت إلى الشرفة، فضاء بعيد عن البيت داخل البيت، السيجارة تُحرق هناك على أقل من مهل، سحر تموت من دخانها..هناك ينفث تجهمه، في الحقيقة السيجارة لا تفعل شيئًا عدا أنها تصاحب زفيرهُ الغاضبَ إلى الخارج، تتلقفه أيدي الشرفة لترمي به بعيدًا..بعيدًا.

كلاهما يبحثان في الشرفة عن غضب الآخر،«سحر»

تكون بالشرفة لتثرثر مع ذرات الهواء، و«إبراهيم» يجلس شبه ميت في غرفة منعزلة مع ذاك المنظر الطبيعي.

ومن الطبيعي أن تتذكر سحر في الشرفة قلمها، اليوم فقط قد أهدتها شرفتها انطلاقة من نوع آخر، تعرفت على ثرثرة جديدة..دعنا نقول موهبة قديمة، وصار من البديهي أن تفتح لها صدرها كصفحتها الفيسبوكية التي أغلقَتْ دكاكينها من مدّة، هناك حيث الخربشات المعلقة، حيث الجمهور الغفير يمر من تحت عباراتها بأرقِّ المجاملات وأصدق التعابير، تذكرت كل ذلك، القصة كذلك التي كُتبت لتوها تبرهن على موهبتها المجمدة..فمن أذابها؟ تساءلت بسكون النسيم..لم تجب ولم تقاوم شغف البحث عن سبب وجيه جعلها اليوم تحديدًا تسرد عن السمراء والبيضاء، تلك الأسرار العنصرية تختزل حكايات قد نامت ما يكفي في الكهف.

ماذا سيقول «إبراهيم» حين يعلم أني اليوم قد كتبتُ؟

عنفوان السؤال انطلق كطرد من البريد دونما وجهة، سؤال بعنفوان قصيد أو كشاعر لتوّه اختلق أبياته الأولى خائفًا من وزن البحر الطويل، يشبه الرضيع الذي اكتشف شغب الخطوات.

أمسكت الهاتف، فهي لم تتعود أن تخفي عليه أدق التفاصيل، حتى الفأرة الصغيرة المتسللة بخبث من باب الحديقة الخلفي

قد تصبح موضوع حديث عبر الهاتف، أحيانًا يوقف انشغالاته ليرافقها في جنونها، وأحيانًا لا يُعير لاتصالها انتباهًا، وغالبًا ما يتظاهر بسماعه لمجريات حديثها ثم يستأذن مقاطعًا إياها وينصرف لأعماله.

بشوق المغرمة:

– حبيبي.

– نعم عمري، ما الأمر؟ أنتِ بخير؟

– بخير بخير..حسنًا، سأخبرك بمفاجأة.

– حبيبتي حامل؟! مبروك، سآتي لتقبيلك، نامي وارتاحي إلى حين عودتي.

– إبراهيم! حمل من؟ أنا في أيام دورتي الشهرية، أنسيت؟

– حبيبتي لا وقت لديّ أنا في اجتماع، قصري حبل موضوعك رجاءً.

– لقد كتبتُ.

– كتبتِ ماذا؟

– حبيبي، اليوم فرغت من كتابة قصة قصيرة تحت عنوان «بعض الوقتِ قد مرّ».

– ولما قد مرّ؟

ساخرًا.

– إبراهيم!

– قهقهة للحظة، حسنًا بلغي سلامي للوقت هذا، أعاننا الله على تحمل جنونك.

ثم انقطع الهاتف...

فصلُ الواقع عن الحلم

الفصل الثاني

يُقال إنّ عودة الزمان إلى الوراء أصدق أمنيةٍ اتفق عليها البشر.

العودة إلى الوراء في بعض الأوقات تكون مؤلمة وقاسية، تُذكر البشر بمسير على ماضٍ مليء بالشوك، جنباته كذلك لم تخلُ من ورد، العودة إذن للوراء هي أن تطأ قدماك المتورّمتان على ذات الشوك الذي مررت منه، اللهم إن كنت قطعًا قد استفدت من وخزك القديم، حيث يكون باستطاعتك تفاديه في رحلة العودة.

في العودة، الورود المغرية.. تُغري أكثر.

فمَنْ مِن البشر يلتفت إليها في طريق الذكريات؟ وهل بمقدور البشريّة أن تغتنم فرصة جمع باقة مُختلفة من كل تلك الورود المخلفة في الماضي؟

قطعًا هي أمنيات، هكذا تفكر في تلك الرحلة.أضغاث أحلام، لا تتمنى العودة ولا هي تشارك البشر في اتفاقهم الوحيد، مختلفة وجهة نظرها تمامًا لتلك الدرجة التي تبيحها

التغريد كما ينبغي خارج السرب.

لمَ سترجع بحياتها إلى الوراء وهي بيديها الباقة المُنقّحة وأمامها الطريق مُدلّلة صعابه بجانب مُرافق ذي نظرة ثاقبة؟ باستطاعتها في معية «إبراهيم» إزاحة كل الأشواك التي تملأ مطبات الطريق الطويل.

الحكمة ضالة المؤمن، وحين يكون للمؤمن قلب له رأس وقدمان، تُقبل الدنيا عليه طواعيّةً، الحياة وحدها كرة صوف متشابك، هي الحياة بمفهومها الواسع معقدة لا تحتاجُ إلى فلسفة الوراء كي تبسط خيوطها، هي تحتاج قلبًا له فم وأذن، قلبٌ له قلبٌ يُفكّران به.

*****

الشرفة نظيفة بما يكفي..الخطوط الزهرية المنقوشة على جدارها توحي بالأنوثة، «إبراهيم» يُحبّ الأنثى ويحترمها كثيرًا، البيت كان من تصميمه ولمسته المترفة بنظرة امرأة أنيقة تظهر جليًا في كل شيء.

حرص أن يكون الأحمر في غرفتهما،مؤثثًا الحنين والدفء، وفي المطبخ المرتب المبهرة خزاناته كي يكون عالم سحر.

تأملت بيتها هذا الصباح كما لم تفعل يومًا، كما لو أنها

زائرة تعيد استكشاف أركانه..اشتمت وسادة «إبراهيم»، رأت صورهما بكل حميمية، مسحت بكفها وجه صورة اعتقلت ذات يوم مبارك ارتباطهما..على منضدة تتوسط مدخل البيت، حيث يصر «إبراهيم» أن تكون صورهما أمام الضيوف، هي قد اعترضت على استعراضها لما لها من خصوصية، وهو أصر على أن يشارك كل زائر بلحظات الفرح تلك.

سحر تعترض ولا تتمادى في آرائها، و «إبراهيم» ينفذ ذوقه ويقدر مدى تنازلها.

تلومها أمها مرارًا في اتصالاتهما من فقدان بيتها رونق أصالة البيت المغربي، وهي المغتربة؛ الديكور المغربي يخفف من أعباء الغربة.

في الحقيقة لم تجادلها كثيرًا، الصالون المغربي وغيره لن يغيران واقع الاغتراب، ثم أنها تعتبر «إبراهيم» وطنًا آخر. من قال إن الرجال ليسوا أوطاننا حقيقةً!

منذ مدة لم تتذوق طعم النصر في قصة، ربما قرأت كثيرًا في أوقات الذروة، ذروة السعادة تحتاج إلى كتب وإلى روايات..قرأت وجه «إبراهيم» وقلّبت قلبه بين كفيها، قرأت أفكاره وشغفه وشغبه، قرأت الهجرة وعرفت مذاق أن تترك كل شيء خلفك من أجل رجل، لقد قرأت حنانه، قرأت جموحه.. قرأته كثيرًا، وفي لذة القراءة نكون قد تأملنا الحياة وأعدنا

التفكير بجدية أكبر وبخسائر أقل، يتخمر السرد ليُطهى ذات صباح في شرفة فوق كتاب.

حين فرغت من البيضاء والسمراء وشعور التنازع على افتراضي، كانت فيروز قد لا تزال تغرّد «بحبك يالبنان»..آه شو بحبك! صدحت مع آخر تيماتها إلى أن انتهت الأغنية. وفيروز أيضًا قضية أدب، وحين تقرأ لفيروز بأذنيك تعي ترف الثقافة، من له فيروز له حضارة وسفير، كأي كاتب سخّر صوت قلمه ليدافع عن رسالة ما، لكن فيروز لا شبيه لها ولا مثيل، في الأدب مثلاً قد تجد لبعض الأسماء أمثلة يتقاطعون فيما بينهم وروابط مشتركة تجمعهم وتميزهم من شرذمة لشرذمة، إنما فيروز لا طير يشدو مثلها..لأن فيروز تكتب إحساسًا يجعلك تخون جميع روايات عشقك في صوتها.

في جميع الحالات فيروز هي فيروز. فيروز البيروتيّة أمس كانت زياديّة جديدة. وزياد الفيروزي كان زيادًا جديدًا أضاف الحنان إلى التمرّد، والحنين إلى الحداثة، وبُعدًا كان مجهولاً إلى صوت فيروز. أمّ وابنها. أمّ وأبوها. أمّ وتتمّة أقدارها.

احتست كأس الشاي تتذكر حفلها الذي تخلّفت عن موعده، من الغريب فعلاً أن صادفت ولادتها حفلها البهيج الأخير.. الأخير في بيروت، ارتشفت رشفة أخرى لتجلي مرارة تلك المصادفة..ما كان سيحدث مثلاً لو لم يأتِ «معتزّ» إلا

بعدها بيوم أو يومين؟لاذت ابتسامة هادئة على محياها، تلك حفلة وتلك حفلة أخرى، الولادة احتفالية كبيرة بالحياة، وفيروز تذوّق آخر يلدك آلاف المرات، صوتها يُكرّرك ويحسسك فعلاً بصرخة قلب مقبل على لعبة اسمها الحياة.

كانت هي على بُعد أمتار، تغني بصوت الألم.. «بكتب اسمك يا حبيبي».. ها هي ترجع لنفس نقطة البداية..الكتابة وقصة اليوم، ولما تذكرت البيضاء كومضة، كان المخاض عسيرًا جدًا وولادة النص لا تشبه ولادة طفل مكتمل،كانت دائمًا ما تضحكها تلك التشبيهات المزيفة، المُعنّف بالعصا ليس كماسكها. يااااه! نثرت هاته الأفكار بخيالها كمن يزرع قمحًا في خريف.

بيد أنّ ولادة «معتز» كانت حكاية موت، كتابة قصة تحتاج إلى كأس شاي ضخم يشبه ذاك المحتسى في القصة. موقف عجيب يشبه ذاك الذي كتبته في القصة، يحتاج إلى هدنة وإلى وقت مُمدد لا ينتهي.

أما ولادة «معتز» فكل ما ستقوله في هذا الصدد خيانة حقيقية لمعنى الوجع، حتى الحزن الذي يكتب تخرج منه حالة الولادة قاعدةً شاذّة،بحيث يصعب عليك إيجاد كلمات في الأبجدية تترجمها، هناك تمزّق،وانكسار..هناكَ آلام لا تعود هكذا بالكتابة، مجرد التفكير فيها هو رجوع إلى الوراء، وهي التي لا ترجع بخطواتها إلا عند الضرورة القصوى،

فكيف ترجع إلى لحظة لن تزيل فيها شوكها ولن تحصد فيها وردًا أخرى؟!

ورغم ذلك كله النساء تلد من جديد..نعم النساء تلد وتنسى أو تتغاضى عن صعوبة الموقف، معللة ذلك في كل مرة تحمَل فيها، أن كل ولادة تختلف عن سابقتها..هراء جديد.

قضت سحر عشر سنوات بين المصحات كممرضة، ولم تهوّن عليها أبدًا دراستها مشقة التوليد والولادة معًا.

سمعت صوت عصافير معدتها؛ الجوع ينبح..لم تنتبه للساعة. اليوم لم يتمدد الوقت كما طمعت، كل الأشياء تركب عقارب الساعة نكاية في انشغالاتنا المهمة.

صوتُ المفاتيح. «إبراهيم» يعود..خرجت تتفقد الساعة التي خذلتها هاته المرة.. وليس من العادة أن لا تختبئ وراء الباب.

حين يحل وقت رجوعه، عادةً تلتصق وراء الباب محملقة بوجه طفولي وعينين أكثر اتساعًا، وهو يتظاهر بالتّفاجُؤ.. تلقي له نفسها وتتسلق قامته بحب لكأنّها في طفولتها لم تلعب قط.

أين هي اليوم. وأين ذاك الشغب منها؟ يدخل «إبراهيم» متسللاً إلى المطبخ ليجدها في حالة تلبس، الفوضى بالمطبخ..سلطة تُقلب وأشياء بالفرن مازالت غير ناضجة، استمالت حديثه بقبلة على خده وهو كالمشدوه بين غضب

وتعجب..يقف كعلامة استفهام وبلا أسئلة، قالت:

– أتيت باكرًا اليوم حبيبي.

– سحر تمزحين بالتأكيد! لتوّك تحضرين الغداء؟ أين كانت حضرتك الصباح والمساء بأكمله؟

بابتسامة عريضة: حسنًا.. كنت أكتب.

– سحر!

– الكتابة غذاء للروح حبيبي. حالما نتغدى أقصّها عليك.. ما رأيك؟

– من رأيي أن تجدي لك تفاسير مقنعة لتأخرك اليوم! أحقًا ما أرى؟!

ضحكت، تأبط شره وراح يفكر في غرابتها اليوم..عجيب! فكر أن لا يسيء لها،فجرحها أقبح من عذرها، سحر حساسة جدًا وكان بإمكانها أن تعتزل الكتابة نهائيًا، لكنها تفرغت لهما بما يكفي..الفكرةُ لم تستوطن عقله بعد، فكرة أن يرجع القلم وبقوة إلى البيت موضوع خطير،ستتناسل أفكاره بسرعة الضوء إلى أن يصبح في حالة غيرة، حين أتى «معتز» للحياة اختطفت منه أمه سحر، وحين كان القلم نِدًّا له حاول أن يصادقه إلى أن كَسّره، أما وأن يجتمع الاثنان فهذا خطر.. خطر!

خطر بباله أن لا يضخّم الأمور،لا..ليس هو..وجهه مكشوف أمامها..واضح ولو سطّر ابتسامته بمزواة ومنقلة كما تصميماته الهندسية، لكُشف أمره عندها وافتضح، وإذن.. قرّر أن يرتمي لأحضان ذارت الماء علّها غسلت أدران الغيرة.

*****

على طاولة الغداء ساد الصمت، سحر كانت سعيدة..قالت له بصوت رخو:

- أتوق لزيارة مراكش.

- أنا كذلك حبيبتي.

- أتذكر؟لم تَرُقك كثيرًا رؤية القردة..ضحكت ثم واصلت الحديث،كتبت القصة وقد أخذني الحنين إلى ذات كوب الشاي العملاق، أحيانًا «إبراهيم» نكهة نفس الشيء تتغير بمجرد أن تكون بغير محله، يعني مثلاً، النعناع المغربي بالحديقة.. الماء هو ذاته من ذرتي الهيدروجين وذرة الأكسيجين.. الهواء هواء.. حتى حبات الشاي المغربية اقتنيناها هناك.. إبريق الشاي كذلك وما زلت أتعجب، لمَ تخونني حلمات لساني!

- أي نعم حبيبتي، مما لا شك فيه أن المغرب أجمل بلد في العالم.

تضحك لأنها تصطاد عفوية سخريته بين العبارات: أنت لا تجيد إخفاء غضبك أيها الطفل الحبيب.

متفاديًا الحديث عن الغضب استدرك حديثه بلباقة: فلتُعدّي ذاك الشاي، وتعالي لنرتشفه معًا من ذات الكأس، أحتاجك على صدري. وبالمناسبة، تفضلي بإلقاء قصتك ووقتك ذاك الذي قد مرّ..ربما غفوتُ على صوتك.

تركَتْ طبقها وهَرعتْ إليه، قبّلته بمشاكسة: لا فرحة تُساوي أن تقرأ ما كتبتَه على مسامع من تحُبّ.

فصل الحبّ الأول عن الحب

الفصل الثالث

«...ما فكّ مشعوذ قطّ هذا السحر في عينيك.

يقولون إني مغربية، وأسرار سحر الحب كلها إرث بين يديّ.

جئت أنتَ..خلطت كل المعتقدات وصار قلبك مُشعوذًا مُحترفًا.

من علمك كل ذلك؟من؟!».

الحُبّ الأول، فيروس فتّاك يردي عقلك كافرًا بالآخرين، مؤمنًا بقلب واحد..أَحَدٌ..أحدْ.

العشق الأول،يقتلك، يحرص على أن يُخرّب كل معتقداتك.. أن يبعدك عن كل أصحابك فتنعزل معه عن الكتابة وتصوم عن الدنيا، لكأنه غسيل قلب.

العشق الأول لا مناص منه، في داخل حياة كل منا شخص ما فتح باب القلب أغلق على نفسه داخله، ثم ضيّع المفتاح لحين رجعة..المفتاح الضائع في ركن ما من الروح نصادفه

حين نكف عن البحث، حتى تلك الأشياء التي نتظاهر بنسيانها تدق باب ذاكرتك بلا استئذان.. وبلا ترحاب أيضًا. يدخل بتثاقل داخل حياتك الجديدة، يجدها وقد تغيرت كليًا.. قد أصبحت بحال أفضل بكثير بعد أن ينبهر المُفارقون لنا من قدرة الزمان على محو آثارهم، لسنا نحن بتاتًا من كنا لحظة الفراق الوشيك.

بعض الأحباء لم يتغيروا، فقط نحن من تسرعنا وأطلقنا عليهم لقب «حبيب».

هو الحب الأول يُعلّقُ على أسس واهية، أي حب بلا تصور في الحياة، بلا صدق..هو بلا شك مجرد شعور لحظي.. ذاك ما يُحسبُ علينا. تقول أُمّ سحر إن كل امرأة يُعدّون عليها مرات ارتباطها. الحب، لا الارتباط الشرعي..هي هكذا حال كل دولنا العربية، لكل أسرة الحق في العد، عدّ الرجال الذين عرفتهة ابنة الجيران والعمة والخالة والجدة،فشرف المرأة العربية يقاس في الغالب بتاريخها الحافل من معارفها..حتى الزملاء والأصدقاء لا يسلمون من أن يُصنّفوا حبًا، أُمّ سحر كذلك تؤمن أن لا صداقة بين رجل وامرأة.

هكذا يصبح مفهوم الحب الأول مرتبطًا بعقليات ومفاهيم عديدة، يكفي أن يكون الرجل أولاً في حياتك كي يصبح في نظر المجتمع حبًا أولاً..شئتِ أم أبيتِ

*****

سحر تكره الرجوع إلى صندوق الذكريات، لكن الأشخاص، هؤلاء من اقتسمنا معهم رائحة الخبز والضحكات وبعض الأغاني والكثير من الكلمات، يندسّون تباعًا في حيواتنا الجديدة..مرغمين. أي نعم، سحر لا تتذكر والذاكرة حُبلى ومليئة، ومن لا يملك ذكريات هو فقير دونما شك.

هي تعي أن رجوعهم في حياتها سيكون مشهدًا لتسْخَر من دموعها، ومن تلك العفوية التي كانتها، لتقوى أكثر ولتحب زوجها بطعم المريض المسترجع لعافيته.. المتمسك بالحياة.

القصص القصيرة التي تَكتب بالعادة هي جرائم قتل مكتملة الأركان واضحة المعالم،نحن نقتل أبطال الحب في قصص، نُخفي ملامحهم، نُزيل آثار الجريمة..بعضنا يدفنهم داخل استعارات، بعضنا يُفضّل إلقاء أسمائهم في يمّ الكلام، هناك من يقتلهم بقلمٍ كاتم للصّوتِ..رصاصة التكثيف والإيجاز والوصف الدقيق تكون مميتة، قتلٌ رحيم.

قصص العشق كذلك كالسُّمّ، ذاك الذي بنقطة منه ينصهر في الدم، فينساب مُدمّرًا بهدوء إلى آخر خليّة.

«خالد» أتى بقوة الحب الأول، أتى للمغرب في إطار الشراكة الإفريقية الكبرى للاستثمارات بشمال المغرب. أن يُنجز مصنع لعلامة تجارية عملاقة في طنجة هو خبر يجلب المستثمرين والمهتمين على حدّ سواء.

كان المعرض الدولي الأول لأرقى أنواع السيارات في العالم،حدثًا ضخمًا بامتياز.

المغربُ كبلدٍ سياحي قرّر –في حقبة كان التغيير الاقتصادي فيهاضرورة مُلحة– خلق منافذ جديدة برؤية أكثر انفتاحًا،فالعالَمُ صار قريةً صغيرة، والحب فيه صار عالمِيًّا أكثر.

«خالد» لم يأتِ عبثًا، كانت رحلته إلى المغرب للعمل، السياحة تدخل في المعنى الشمولي للرحلة،إن لم تكن النية كذلك تحت مظلةالعمل.

المشارقة إلا القلة يعتقدون عن المغرب ظواهر مضحكة.

تعرضت سحر لوابل من الأسئلة المتكررة أحيانًا والمتداخلة.. هي نفسها الأسئلة التي تُطرح كلّ مرة،المرأة المغربية والجنس، المرأة المغربية والشعوذة..المغربية ولذة الطبخ. «خالد» أتى من دون شك بعقل مليء بالخرافات عن المغربيات خاصة، والمغرب عامة..لكنه أتى بحماس مفرط، ودون شك كذلك هو مدير مبيعات أرقى سيارة في العالم، والزيارة للمغرب تُعدّ الأولى له، السيارة ستُعرض وتكلفة المغربي في الاقتناء لا تتعدى إلا السيارات الاقتصادية بأقساط مريحة، السيارة المعروضة الآتية من الشرق تُرى بالعين المجردة دون لمس أو اقتراب..في المعرض حُددت لها أرضية خاصة وطاولة

بشكل مُترف، حتى تدور فوقها على مهل لتسر الناظرين.

ماذا تتوقعه أن يكون؟!

دعك من أنـه متمرّس، لبق..دعك من أنـه يحسن غوايـة الكلام، إنـه شـاب ثلاثيني ذو تقاطيـع عربيـة أصيلـة، باسق كشجرة أرز..نظرة حادّة، حضور قويّ وسُمرة مشكوك في أمرها..كان رجل اللحظة بامتياز.

*****

في ساعات الضجر بالليل..المصحة تبدو كثلاجة لمستودع أموات، كانت تقضي سحر بعضًا من الوقت تُمشّط الخواطر. أنين المُتألمين إلى جانب أجسادهم الغائبة. تجلس هي قرب المَلَكَيْن لتخُطّ بدورها أحاسيسهم، تقتنص تلك الصور المُتعبة من المرضى والنزلاء.

اللّيل بين ردهات المصحة ضيف ثقيل الظل، تخالها بين الأضواء الخافتة مبعث خوف، الموت يتمشى بتثاقل بين الغرف،سحر كانت تخاف الأوقات الحرجة التي يَتصارع فيها مريض مع موت وشيك.

للموت رائحة، وفي المصحة ريح الموت يزكم الأنف، هو يكون حاضرًا في المصحة أو بدونها،لكنه يكون كثيرًا، هنا على الأرجح يستريح الموت من دوران يومه، يكون بقوة بالليل أيضًا، يرتبط في ذهن سحر على الأقل بالعتمة وذاك

السكون الممارس بحِرَفية في الأرجاء، الموت لا يزعج أحدًا، هو يتمشى بتثاقل بين الغرف، يجيد التسلل.. تهاب هي تلك اللحظات التي ينتصر فيها الموت.

هي مع الموت في حضور مرتبط بالليل، «سحت الليل» أو «خفاش المصحة» كما يسميها زملاؤها مازحين، سحر تفضّل أن تنوب عنهم ليلاً، بمحبة وود، تقول لزميلتها:

– أولادك وزوجك في حاجة إلى رعايتك أيضًا..الليل لكِ إذنْ.

من ينتظرها ليلاً غير «ماجدة»، وحكايات تعب من رجل جديد؟!غرفة أغراضها مرتبة لا تحترق بشوق، بقايا مكالمات مكثفة من والدتها على هاتف المنزل..لا شيء يستحق أن تقايض به ليلها ذاك.

سحر لا تشرب قهوة، ومع ذلك تجدها بعينين واسعتين تحملق في أجساد المرضى دونما إغفال، تقضي ليلها كما الموت، من غرفة لغرفة تتفقّد أوجاعهم ونومهم البائس الذي لا يشبه نومًا..لذلك أغلب قصصها القصيرة حزينة، تميل إلى الصدق، لا ملاكًا يشبه ملاك الرحمة، ممرضة على حِسٍّ عالٍ من المهنية والأخلاق، تتقن شكّ الحُقَن كما القلم.

الشفاء من الكتابة قرار صحي، والعلاج النفسي الذاتي خطوة أولية لا مناص منها نحو شفاء جسدي أشمل، هي

سيرورة.. وذاك اليوم، ليلته لا مثيل لها.

حالة اختناق، ونداء في الطوارئ يصّمّ آذان العاملين في المصحة.

*****

ليس–أبدًا– حدثًا يُنسى.

«معتز» النسخة الأصلية من أبيه، ممدد أمامهافي الغرفة، تجلس بهدوء تلك الليلة، صمت المصحة، خوف طفيف يطفو، قشعريرة تعتريها..بنصف بيجامة،كتفاها العاريتين، فمها المرسوم المرتجف، سمرتها المغرية، يداها الطيّبتان.. ممرضة هنا وهناك، الحُمّى اقتربت من فلذة كبدها، هاجمها الضيق وتوالدت الوساوس.

«إبراهيم» يأتي من الخلف، يُطوّق خوفها..حين يمرر كفيه يستشعر مخاوفها.

– سيكون بخير؛ الحرارة منخفضة..تعالي إلى جانبي.

– هي حُمّى مرتبطة بأضراس حبيبي الصغير التي تنمو.

بخَفْتٍ قبّلته.

– سيكون بخير.

– أعلم، إن شاء الله.سأبقى إلى جواره ريثما تستقر حالته،

نمْ أنتَ.

– حسنًا.

عناق حارّ وقبلة. والليل طويل يُحرك خيوط كراكيزه.. والأحداث مسرحية للعجائز.

جسد الـ «معتز» الصغير المرتعد ببرودة الحمى حينًا ومن الحرارة حينًا آخر، براءته ونعومة نومه، التعب لم يكن إلا ليذكرها به.

كانت تقصفي مخيلتها على طفلها حكاية «الحب الأول»،حيث كل شيء يتواطأ عليها، لا تريد أن تتذكر.. قالتْ وعطر «إبراهيم» في خدها:

«استلمتُ خالد مع باقي زملائي،في الطوارئ نتحد..الحدث أكبر حين يكون مريضنا ذا اسم ومكانة، أكبر حين يكون سائحًا آتيًا ليعرض أغلى سيارة في العالم العربي، أكبر في أذهاننا حين يكون المريض إنسانًا، إنسانًا وحسبْ.

– ما جرى؟

– اختناق حاد من خلل في جهاز المكيف بالفندق.

– ضغطه أربعة على تسعة.

– اسمه خالد، ثلاث وثلاثون سنة من الأردن.

– نادوا د. حسام حالاً.

كنا نجرّه ونعدو به من ممر إلى ممر، وصلنا غرفة الطوارئ.. الضوء الكثيف، الكل منهمك في المساعدة، الجو مشحون..ترقب،نبضي متسارع..د. حسام يصل.

– ينزف من أنفه.

– هل من صورة أشعة للدماغ؟

– أمامك يا دكتور.

– همممم.

ركّبنا له قناع الأوكسجين للتنفس وسيطرنا على الوضع،كما العادة أن يحدث في هاته الحالات العادية من الاختناق.

كان مُمددًا، مسالمًا جدًا، محياه الغاضبُ الغائب..أبدًا لا يُنسى، حتى في جثته المتهالكة تعبًا..فاقدًا لوعيه، تتلمس ذكاءه من سُمرته المميزة، الطاقم الطبي المشرف كان على أعلى درجات التوتر والترقب، وهاتف المسؤول عن المصحة في حديث دائم عن حالة «خالد» ولم ننجُ كذلك من تدخل السفارة السعودية بالمغرب..كنت أرقبه وراء الزجاج شخصًا عالي المستوى، ولقد كان فعلاً.

بعد يوم من حالة الطوارئ في المصحة، يستعيد «خالد»وعيه في الثالثة صباحًا، مشرفة على حالته ثانية بثانية، خطر

ببالي حين أفرغت عليه قراءة ما تيسر من ذكر حكيم أن أكلّمه، قُلتُ له.. على ما أتذكّرُ:

- أعر وجهكَ..ملامحي

كي أضمك حين يُبكني الريح

وينسى النوم غفلة القمر

حينما يتوارى الكل هناك

وترتد الفراشات

عن دين الصلاة

ومن دون تلك الأشياء

الغارقة على سطح الوجه

تتوه النساء عن المخاض

ويفقد الرضيع شهقة الحياة

ويحتفي السبات بعرس الشبح

*****

كي أنسج من الوعود

بضع خطاياه

كي أبتسم بهدوء القبلة الأخيرة
والخطة تترجم في الخفاء
ولا يعود هنالك في الأفق
قرار وحيد
سواكَ

*****

كي أتعلم القراءة من جديد
حتى لا أرسب في حصص التفسير
ما زالت عيني أمية
عن قراءات الثعالب
لأنها مازالت تصدق شغف القصائد
وتنام في أقفاص الحية
كي أتعلم نفث السموم
كطائرة تحوم
ولا تعود بدون رسائل
كي أسمع الريح

حين يبكني ضاحكًا

كي أراني.. أشتاقُني

كي أتذوّق طعم الموت..

والرحيل.

سعيدةٌ جدًا، حين ألقيت قصيدتي على مريض منهك بصوت خافت جدًا، بدا حينها «خالد» قمرًا شريدًا في سرير سمائه.. عيناه نجمتان وفمه قارب للموت وللعبور ولكل الأشياء التي لا أعرفها..لم أجرّبها، تلك القُبلةُ المُحرّمة..يتغنى بها الشعراء، أكتبها أنا.. ويا لني من محتالة شعر !كنتُ أكتب ما لم أتذوّقه، الكتابة فضاء للتجريب،القبلة كذلك ملذّة تستحق أن نكتب حولها، أن نستشعرها في قصيدة.

ما أدراني أن كل الشعراء كانوا يبيعوننا وهمًا؟

الآن باستطاعتي أن أُقبّل «إبراهيم» بكل حرية، بكل تجريب،القُبل تختلف.. والقُبل على أشكالها توقع في مصيدة الحبّ الجميل،الحبّ«إبراهيم».

«خالد» يا «معتز».. كنت أتلو على مسامعه قصيدتي كما أقرأ عليك ماضيّ، على اعتبار أنك ستفهمني يومًا ما، ثم على اعتبار كذلك أنك لا تعي ما أقول، لا تسمعه حتى..

فأنا أحدثك صمتًا لصمت، زفرة بزفرة وكل شهيق ملتهب هو مليء ببقايا أشياء تتصاعد، يلزمها أن تتبخر..هي كذلك أشياء لا معنى لها، يجب أن تحكي بأي طريقة لتزول.

ريثما أنهيت القصيدة،شيء ما تحرك وأنا أهم بالخروج.. أعدتُ خطواتي التي أكره أن أعيدها، استدرتُ، كانت يد «خالد» ترتعد..عيناه في تثاقل بليغ الجمالية تفتحان وما تفتآن تعاودا غلق أبوابها، فمه المُضمّد بالأوكسجين وتلك الأنابيب الصغيرة تزعجه..أشياء كثيرة كانت تكبّله وتحدّ من تحركه، مسكت بيده، طمأنتُه وأنا أسأله بلكنتي الفرنسية عن حاله..لا يُجيبني، أتذكّر أنه عليّ التواصل معه عبر حديث أقرب إلى اللهجة الشامية.. أتلعثم وأنا أحاول البحث عن مفردات يفهمني بها، من حسن حظي لي أغاني فيروز.

– كيفك الآن؟

– أين أنا؟

– في المستشفى يا خالد، معك سحر، أنا ممرضة مشرفة عليك الليلة، حمدًا لله على سلامتك.

في تثاقل نظر إليّ ثم غط في نوم مجددًا.

كنتُ حينها قد ضغطت زر الطبيب المرافق لنا ولحالته الطبية،الدكتور حسام بعدما تفقد تحسّنه، شكرني على تفانيّ في عملي، ونوّه لقصائد تركتها بالصدفة على مكتبه.

- أيتها الشاعرة أحسنتِ!

احمرّ خدي يا «معتز»..احمرّ كثيرًا، كانت قصائدي ملكي، كنتُ أنا «عارية»..لقد قرأني الدكتور حسام، ونحن نكنّ له احترامًا كبيرًا.أن يقرأ خربشاتي وفلسفتي حول الحزن وعن المرضى والموت والكتابة لم يكن في الحسبان..كان رأيه مدعاة فخر وخجل في نفس الوقت.

جاء الصباح، وأنا مازلت أنتظر استفاقة جديدة لذلك الرجل الذي زعزع دواخلي، حتى أعرف ما الذي يُجبرني على أن أتمسك بمريض بهذا الشكل من التفاني، لكني أفعل ذلك يا وَلدي وأكثر، كل مريض يحمل معي قصة، وحين يستعيدون عافيتهم تخُتلَقُ انفعالات داخلية قوية، متناقضة أحيانًا..بقدر فرحتي بشفائهم بقدر شقائي على رحيلهم..أما من يرحلون رغمًا عن تفانينا واخلاصنا في مَدِّ كُلّ أشكال المُساعدة، فهؤلاء يتركون ندوبًا..لطالما قالت لي أمي إني لا أصلح لهاته المهنة، كنتُ أبكي في غرفتي أفظع بكثير مما يبكيه ذويهم، كما يحدث أن لا تنزل دموعي وتتعلق بي كل أمنياتهم وآخر كلماتهم لي.

استفاق «خالد»،وانتزع مني شهادة الفرح وضحكتُ مثل ضحكتي حين رأيتك في الحياة تبكي وتصرخ مضطربًا من مخاض، كنت سعيدة وأنا أراه مبتسمًا، مستيقظًا من مخاض الاختناق.

شرحنا له كيف أتى إلى هنا، قال إنه فقد وعيه من حرارة مفرطة، انبعثت من جهاز التكييف، حمدنا الله على سلامته، تناوب على غرفته رجالٌ أكابر من السّلطة وذوو النفوذ، وليس غريبًا عن المصحة، هاتفه طوال اليوم على اتصال بمعارفه.. وبالليل حين سرى كل العباد إلى فلكهم ورجعت أنا من قيلولة سريعة في بيتي، أول ما فعلته بعد ارتداء البالطو الأبيضهو أن أطمئن عليه.. فتحتُ الباب وجدته يفتح عينيه ثم يغلقهما في رتابة.

ألقيتُ التحية؛ ردّ متعبا:

- لاشك أنكَ لم تسترح طوال اليوم؛ صوتُك متعب.

- حقًا؟! لم أنتبه..أشعر بتحسن..متى يمكنني الخروج من فضلك؟

- أمستعجل أنتَ على تركنا؟

مازحتُه ثم أردفتُ وأنا أراقب تحسنه: قريبًا قريبًا.

- أنا لا تعجبني تلك الإجابات المفتوحة على الاحتمالات، لي مواعيد عمل سيدتي وأنا ملتزم هنا بعمل.

- حضرتك من أي بلد؟

- أنا أردني مقيم بالمملكة العربية السعودية. هل من سؤال جديد؟

مبتسمة: نعم. مضطر إلى تحمّلي قليلاً..هذا إن لم يكن في الأمر من إزعاج.

– نعم، أنا منزعج قليلاً..ألا يمكنني أن أدخّن من فضلك؟

– لم يسبق لك أن دخلت مصحة من قبل، صحيح؟

– لقد قلت لا أستصيغ الإجابة عن سؤال بسؤال.

– حسنًا، لا يسمح هنا بالتدخين للأصحاء، فما بالك بالمرضى!

– دُك حسام يدخن، رأيت علبة التدخين بجيب البالطو، ثم إن أغلب الأطباء يدخنون.

– صحيح، نقول نحن مثلاً بالمغربي: الفقيه اللي بغينا بركته، دخل للجامع ببلغته.

– عفوًا؛ لم أفهم.

– لا عليك.. لا عليك... المهم، حالتك جيدة وتتماثل للشفاء الحمد لله..بعد أن يزورك الدكتور حسام غدًا يمكنك مغادرتنا.

– جيد جدًا، كان بإمكانِك اختصار الإجابة، بدل هذا اللف والدوران. النساء تثرثر كثيرًا.

ابتسمتُ وقلت له: أمسية سعيدة، سأكون بالجوار متى

احتجتني.

- وأنتِ من أهله، فلتعيري ملامحك وجهي.

سمعت الجملة بعدما أغلقت الباب ثم فتحته مجددًا: عفوًا! ماذا قلت؟ كأني سمعتك تقول «أعيري وجهك».. لم أفهم.

مبتسمًا بحنق: لا.. لا عليك..كان مثلاً أردنيًا فحسب.

- أوك.

قلتها في ظرف ابتسامة وأرسلتها إليه في عجل. قفلت الباب وظللت بين الغرف أنتقل.

لكن الليلة أضحت جميلة لأنها كانت تحمل أسئلة، عن الحب وعن هذا الرجل المشاكس الذي يصارع ضعفه،رجل له من النخوة ما لا يجعله محط شفقة، قوي في إجاباته، ثاقب في تصويب كلماته.

كأنه سمعني حين كنت أقرأ قصيدتي.

تبادرت إلى ذهني أفكار كثيرة وضخمة، ما فتئت تشرق مع النهار.

رتب «خالد» أغراضه وترك لي بطاقته الشخصية عليها رقمه وبريده الإلكتروني، شكرني وانصرف.

غرفته المتروكة بنوافذها عبِقة بكلماته وذاك السحر.

تركنا، وترك أسئلتي معلقة كالمصل المنتحر من أعلى السرير.. تركني مختنقة بالحيرة.

*****

«الساعة الثالثة صباحًا، يابني..الحرارة تنخفض».. قبَّلْتُهُ.

حين فرغتُ من العمل، ذهبت إلى البيت بحماس..راجعتُ بنشاط هاتفي وأجبتُ عن أسئلة أميبصدر رحب، تناولتُ مع «ماجدة» اللمجة، كانت «ماجدة»-رحمها الله- لا تتقن الثرثرة لكنها كانت تفهمني، في عدم وجود إخوة من جنس أنثوي عوضني الله بها.. وأخذها فيما بعد. الحمد لله. كنت سعيدة وأنا أقص عليها حدث مريض ك»خالد»، تعجبت لأني حكيت لها عن صفاته كمثل قولي إنه ثاقب النظرة وذكي، بالعادة الناس تحكي عن مواصفات خارجية، ما أثار «ماجدة» أني تجاهلت شكله تمامًا.

نظرتْ إليّ وأحكمت القبض على انتباهي ثم قالتْ: كلميه واسألي عن حاله؛ الرجال يعطون بطاقاتهم الخاصة لأنهم ينتظرون اتصالاتنا على نار ولهفة؛ كلميه، لن تخسري شيئًا.

لم أعارضها، وكأنني كنتُ أنتظر من يشجّع حماسي، قفزتُ إلى الهاتف، تناولتُ رقمه الذي كان بيدي، وانطلقتُ أتسارعُ مع دقات نبضي، قلتُ لها إنّه لا يجيب. أحسستُ بحماسي يخمد كلما طال الرنين..أحسستُ بخيبة.

قالت في الإعادة إفادة.

الرقم يرن، يرن إلى أن ينقطع؛ لا جدوى.

انكسرتُ وتركتُ لمجتي وانصرفتُ إلى مصحتي، وبي موجة حزن ترافقني، مشيتُ في الطرقات، طرقات طنجة العالية، الأزقة والشوارع التي تحبِس الأنفاس، مشيتُ دونما انتباه.. بائعات الهوى تبعن على الطرقات ابتسامة منكسرة، كالتي أحمل.. السكارى يترنّحون، يغنون أغاني «الشاب حسني».

الجو صيف والناس متراصة على حائط الكسالى..وقفتُ كما هم على السور أرى المدافع فارغة من قنابل، القنابل المدوّية نُصاب بها من انتظار مكالمة، من رجل عابر وضيف راحل، لا أتعلم من دروس الحياة..الآثار سميت آثارًا لأنها تبقى شاهدة على التاريخ كي تُذكّرنا به يومًا ما، تؤثر فينا ،فكان لزامًا عليّ أن أُخرج «خالد» من تفكيري، طالما يرحل في حياتي أشخاص بموت أو بشفاء.. كم يلزمني من الوقت لأتعلم؟!

البحر كان ليسمعني، يجيبني بهدير أمواجه الهادئة، هاتفي المحمول الضخم يرن.

– عزيزتي الغبية.. أنتِ بخير؟

– نعم بخير يا ماجدة، هل تريدين شيئًا؟!

- لا، فقط سألت عليك في المصحة قالوا لم تأتِ بعد.. لقد رن هاتف البيت يا غبيّة، هناك من يسلم عليك ويدعوكِ غدًا لافتتاح المعرض الدولي للسيارات

- من صاحب الدعوة؟

- لا أعلم، قال بلكنة شامية: «سلميلي على سحر».

- أوووو !

صرخت: إنه خالد! لقد اتصلت من هاتف البيت ولم أتصل من هاتفي المحمول.. اللعنة!

- حسنًا، يا غبية..سنذهب معًا، لذلك فلتختلقي عذرًا وقحًا كي لا تشتغلي غدًا مساءً.

- حسنًا.. ولكن ثريا ملتزمة بأولادها وزوجها ولا...

- سحر.. لن أسمع أي هراء منك، الغد لك.. تذكري.

قفلت الهاتف، كنت أصرخ على ما يبدو كمجنوني السور، المارّون كانوا يحملقون ولم يسبق لهم أنْ شاهدوا حديثًا عموميًا بصوت مرتفع لفتاة ليلاً.. كما فعلتُ.

*****

لا أجد لك يا بنيّ إحساسًا أكثر من أنوثتي المختَرقَة من نظرات «خالد» إليّ، لم أحب يومًا طوال طفولتي بُنيّ؛ كنت

أدرس وأكدُّ وأُعين والدتي على تربية إخوتي، هذا ما يحصل مع باكورة العائلة،كحالك يا «مُعتز».. يحدث أن يعلق عليك الكلّ وِزر البدايات.

كنتُ أحتمي بمظلة خجلي، وراهنتُ على دراستي لأرى بها الدنيا،بمنظاري أنا. أبدًا لم يكن حبي الأول تلميذًا معي؛ هذا يحصل للفتيات العاديات، لـ «ماجدة» مثلاً، كما روت بلسانها عن ابن الجيران..لا أبدًا كأنا، فقط من الفصل للبيت ومن البيت للفصل.. وبين الأزقة والدروب أغفل عن قراءة وجوه العاشقات، لا أرى الحب؛ كنتُ أفضّل أن يبقى بعيدًا بعيدًا..حيث أب سيتفهم نبضي وأم ستقربني إليها أكثر.. أكثر مما تفعل الصديقات.

لابد أن يكون الطمع إلى الكمال هلاكًا.. ولكل أحلامنا طموح ندفع ثمنه غاليًا، إلا أني سعدتُ بوظيفتي وراتبي الذي يكفيني الحاجة إلى الأهل. صرت بمهنتي أتجمّل وأشتري ما لم أقو في يوم أن أطلبه من أمي. بالنقود..الحب يصير له معنى.. له منطق وخصوصية، استقلالية وتحقيق الذات، أمر محمود، النساء اللواتي لا يشتغلن يمتهنّ التسوّل بكل معانيه، ينتظرن آبائهن، أزواجهنّ..منهن من تنتظرن رجلاً على حافة سرير، يصل إلى نشوته عبر فقرهن..عبر جهلن.

لستُ أُدين أحدًا، وليس لي الأحقية في محاكمة العالم والنساء خاصة، لذا أنا أحترم الخادمة الشريفة في البيوت،

أحترم «مي يامنة» تلك التي اشتغلت عقدًا من الزمن خادمة لعائلة «المالح» المغربية اليهودية، ثم ترتحل العائلة لكندا، ومن فرط تعلقهم بها يوصي بها خيرًا لصديقه الدكتور «حسنات» بمصحتنا،فتشتغل فيها،الآن هي مهتمة بالقسم الغذائي للأطر، فتشبعنا حنانًا كذلك..لكم أحبها وأشتاقها!

«مي يامنة» لم تصبح مومسًا حين أجبرتها ظروفها فعل ذلك؛الطلاق في الخمسينيات كان عيبًا وذنبًا لا يُغتفر،إلا أنها فضّلت أن تخدم عائلة بدل أن تسلك أسهل البدائل، اللقمة الحلال هي كالمستجير من الرمضاء بالنار، حيث لا راحة تشبه تلك التي يهنأ بها ضميرك بعدها ليلاً.

النساء الآن أصبحن يُجرّبن حظهنّ. نصف الطاقم الطبي إناث، بعضهن اخترن العنوسة؛ المتزوجات يأتين بمسلسلات تذمّر لا تنتهي..نستفيد نحن العازبات من دروسهن، فننضم تباعًا إلى العانسات بالاختيار.

فكّرتُ كأي فتاة تتراهق متأخرًا جدًا عما سترتديه ليلة اللقاء، كنتُ شاردة في المصحة أُقلِّبُ–لأول مرة– بين يديّ مجلة نسائية من الوزن الثقيل.

النساء لا يشبهنني.. على الأقل نساء المجلة.

سأتخلّص من نظاراتي الطبية هاته، قلتُ في حزم: سأعمل على شراء شيء صيفي يليق.

الساعةُ الواحدة ظهرًا ؛ انتفضتُ بهلع..الليل مرّ بسرعة، سأمر على الغرف لأتفقدها.. قالت لي «مي يامنة» بأني بدوت غريبة لها اليوم على غير العادة، بعض المرضى هم من سألوا إن كنت بخير.

يمازحونني، قلبًا تعِبًا لقلبٍ يدقّ بحُبّ.

وقفتُ كثيرًا يا «معتز» أمام زجاج محال الملابس الرّاقية، استلمتني البائعة، لم أكن أزعج الباعة، أحيانًا أترك لهم اختيار ما يناسبني وأحيانًا أختار دون أن أقيسها..أبتاعها وأنصرف فرحةً.

على الأرجح ثياب ممتلئ بها دولابي، ليست على مقاسي،لأني أفاجأ من ضيقها حينًا وضخامتها حينًا آخر..لا بأس، كنتُ يومها مصممة على أن أقيس شيئًا، الموعد غير مسبوق لي والمعرض الدولي يحتاجُإلى بذلة أنثوية فخمة، سترة وقميص أبيض بتفاصيل أنثوية ياقته على شكل فراشة كي أحسن عقدها جانبًا،تركت بعض ساقيّ مكشوفًا..جرأة مسبوقة.

الخامسة عصرًا انطلقتُ و «ماجدة»، خمس دقائق وأنا في كل مرة أغير فيها تسريحتي، «ماجدة» تقول إن شعري منسدل أجمل من شعر مربوط كذيل الفرس، «ماجدة» على عكس آراء والدتي دائمًا،صديقاتنا هم عكس أمهاتنا، وإلا لما

كانوا لنا صديقات.

تسوقُ «ماجدة» بمهل وأنـا أترجّاها أن تسرع قليـلاً حتـى لا نخلف المواعيد، أنـا كالسمراء فـي القصص التـي كتبتها اليوم، أكره أن نترُك الرجال ينتظروننا لأي سبب كان. تقول «ماجدة»إنـه لـم يعطناموعدًا بـل فقط عرض علينـا المجـيء للافتتاحيـة؛ هوّنـي عليك.. (قالـتْ).

كنت أبدو طويلة، ما ورثتـه عن أهلي من مقومات جمالية لا بأس بها،يلزمني قليلاً من الاهتمام كي أصير مثل مجلات الجمال الملقاة على طاولـة الانتظار قبل أن يفحصك طبيب.

الكعب العالي لم أعتد عليه بعد، أنا و«ماجدة» نبدو ككلمة «ا» بالعربيـة «هو»، حرف الـ «i» يبدو قصيرًا أمام حرف «ا»، كنـا نضحك كثيرًا علـى فرق الطول بيننـا حتـى كانـوا يخالـون «ماجدة» ابنتـي الصغيرة.

والحق يقال، كان المعرض فاخرًا، يستحق مغامرة الخمسمائة جنيه التـي ضيعتها بين تصفيف الشعر وطلاء الأظافر..قلتُ ونحن نتمشى بين زوايا المعرض والسيارات:

– أين سنجد خالد وسط هذا الازدحام؟

– يا إلهي! لا تجعلينـي أتبرأ منك هنـا، يا غبيـة تظاهري باللباقة وباهتمامك بالمعروضات، وفي سياق الإتيكيت نحن نبحث لك عن خالدك هذا.

– طيب..أتعبني الكعب العالي.

– هاتفك يرن؛ ردي.

– اللعنة! إنها ثريا، ستريد أن أمسك عنها الليلة.. أولادها وزوجها و...

– أسبق لي أن قلت لك كوني أنانية؟

– لا.. لكني لن أفعل.

– لن أجيبك،ردي.. هيا ردي.

أنا: آلو يا ثريا، الحمد لله بخير، في الحقيقة..آآآ...لالا قطعًا عزيزتي، لكني...ثمّ إنه... لذلك كله سوف لن...لا لا عزيزتي، كان بودي والله، إلا أنني ملتزمة بـ... طيب طيب.. لا تغضبي مني رجاء..ليلة سعيدة!

– طيب، ما الذي حصل في العالم حين اعتذرتِ؟!

– ماجدة، القضية ليست قضية أن يحصل للعالم شيء، القضية أنها مرتبطة بزوج وعائلة و...

– وأنتِ لست مرتبطة، وتُضيّعُ عليكِ فرصة أن تلتقي برجلك!

– ماجدة، لا جدوى، أنا لا أفكر بالارتباط، ثم إني أنا هنا.. أنا هنا.. أنا هنا لأسأل عن أحوال سائح!هو ضيف بالمغرب

ومن غير اللباقة أن لا أسأل عنه، هذا كل ما في الأمر.

– صدقتُكِ أنا.. اتبعيني، اللعنة على اليوم الذي عرفتك فيه!

كنا نضحك في المعرض..نضحك حتى كادت تفسد عليّ مكياجي، بالكاد صبغتُ عينيّ، والحمرة تجعل فمي كمنْ لتوِّه حشاه بالسّيليكون.. عجيب أمر «الميك آب»!

في دائرة تتوسط المعرض جموع غفيرة من الناس، الكل هناك يتظاهر بثقافته في التكنولوجيا وعلم الميكانيكا، بعض السيارات تُفضلها عن الشقق، لا ينقصها سوى مرحاض كي تسكن فيها.

ثم إنّ الكل مهتم لعدد الأحصنة التي تجر هاته العربات، حتى النساء، تقفن كالقديسات أمام سيارات أنثوية خاصة بهن، تجدهم وقد لونه الهنّ بالأحمر والوردي والبنفسجي، سيارات تليق بحذائك وحقيبة يدك..هذا وإن بعن ما بيدهن وعنقهن من ذهب كي يشترين.

الأزواج تحسهم في ورطة، النساء تذوب أمام السيارات الفارهة، «ماجدة» كذلك كانت تفعل، كل رجل لا يملك سيارة عند «ماجدة» رجل ميؤوس منه، أنا كنت أقول إنها رَجُلي ورِجليّ.

جذبتنا السيارة المتوسطة، وقفنا كذلك مشدوهتين، السيارة

تبدو لنا فلكًا فضائيًا، صاروخًا مكوكيًا، لا شيء يحيلنا إلى أنها من صنع بشري.

صوت قريب منا وأنا وهي كقرويتين، أمام شيء يبدو نخبويًا جدًا، صوت كلاسيكي من ورائنا يقول:

– السيارة التي أمامكما صممت خاصةً لأصحاب القيادة والريادة، بتقنيات عالية في التكنولوجيا الرقمية الحديثة، عبرها يمكن للسائق أن يحس بأقصى الأمان، هي صممت لمن يحسنون اختيار رفاقهم.

انتهى الإعلان ذاك القادم وراءنا ونحن كنا لا نزال في ضياع، أحسسنا أنفسنا في وصلة إشهارية، مخدرتين على وقع ما سمعنا، وما أبصرناه لم يكن عاديًا البتّة.

قال برفق:

– مرحبًا بكما.

استدرتُ،وقلت بنبرة طفل وجد أمه الضائعة عنه في المعرض: خالد!

همست إليّ «ماجدة» لأكون أكثر لباقة.

أمسكَتْ زمام الأمور.

– أهلاً خالد، أنا ماجدة التي حدثتك في الهاتف.

– أهلاً بكِ، أهلاً سحر..أكاد لم أعرفك.

– حسنًا، «الميك آب» قناع مبتكر يصلح للتنكر.

ضحك وقال: كيف حال صحتك؟ وكيف حالك من الاختناق؟

– أتوقعني أغفلت أن أسألك؛ الحديث أخذنا..من يقوم بعرض مثل هاته السيارة يشفى من الاختناق أكيد.

– زيارتكما الأولى لمعرض بهذا الحجم؟

– في الحقيقة...(قالت ماجدة) هي زيارة أولى للمعارض، كونه الأول بطنجة وكونه حدثًا مميزًا، المغاربة ليسوا متعودين بعد على عرض سيارات فخمة من هذا النوع.

– طيب، أنا سأرجع لعملي، كما تعرفان أنا المنتدب والمسؤول عن المبيعات، أستسمحكما أن نلتقي في حفل عشاء مقام على هامش الافتتاح..أنا أدعوكما دون أن ترفضا أو تتحججا، وأنا سأوصلكما إلى البيت إن تأخرتما.

– لا عليك؛ أنا لي سيارة تحمل أرجلنا الناعمة عن الأرض.

تقهقه «ماجدة».

– حسنًا،(قالت سحر) إلى المساء.

موعد العشاء بعد ساعة، لم تنكر «ماجدة» وسامة «خالد»..

قالت لو كنت مكانك في المصحة لقبّلته. ما كانت لتفعل شيئًا؛ أعرفها كما أعرف نفسي.

لما فرغ من أشغاله وجدناه ينتظرنا أمام الفندق الذي اتفقنا عليه، الأماكن هاته لا نذهب إليها إلا عند الضرورة القصوى، أو حين تتزوج زميلتنا فنقصد معها مثل هاته الفنادق المصنّفة التي تستقبل العروسين، كأن الفنادق هاته وحدها لها الأحقية في استقبال افتضاض البكارة. لمَ لا يكون يومهما مرتبطًا ببيتهما أو في أي مكان آخر؟! الفنادق ربما تبيح لك من الخصوصية ما لا تمكّنه لك باقي أماكن الدنيا من هدوء.. والأهم، بعيدًا عن أعين المتلصصين والفضوليين.

لاحظ «خالد» ارتباكهما،هما لا يأتيان معًا في العادة ليقابلا رجلاً، «ماجدة» انسحبت بدعوى رأسها المتألم فجأة، وفسحتْ لي ارتباكًا غير متوقع.

سلمت عليها وقالت إنها ستنام، حَيَّتْ «خالد» وقبّلتني توصيني بخفت أن أحسن التعامل.

جلستُ وكان الموعد كله ضربًا من المحال، جميل كان هو في كلماته، كان يشرح لي عن الغربة، وعن قرب الأردن طبيعة وطباعًا من المغاربة، هذا ما لمسه في التعامل الطيب خلال مقامه المترسخ في ذاكرته، كما قال:

– سيبقى المغرب مطبوعًا بذاكرتي ما حييت، لم يسبق أن

زرت بلدًا وكنت سأفقد فيه حياتي وقلبي معًا.

تعجبتُ من كلمة قلبي في سياق الجملة، لم أمررها..قلتُ: أنتَ في المغرب فلا تستغربْ.

ضحك مطوّلاً على المثل..قال:بالمناسبة ماهو المثل الذي رددته على مسامعي في أول لقاء؟

قلت: ذاك الذي كان حول التدخين؟ سأردده حالما تعيد لي المثل الأردني.

- أنتِ ذكية.

صوّب نظراته وأخذ رشفة من سيجارته.

قلت: أنا عندي حساسية مفرطة من التدخين، هل لك بأن تطفئها رجاء؟!

- حسنًا..

قال بحدة، كان يدفن رأس السيجارة بقوة في الصحن حتى تمزقت.

- إن قلت حدثيني عن سحر في كلمتين؟

- سأقول إني..طفلة كبيرة.ماذا عنك؟

ضحك: لا لستِ من يضعني في نفس لعبتي، عليك اختيار

شيء مبتكر بلا ركاكة..لا أقبل.

كان مُغريًا بغروره: حسنًا، الأردن معروفة بالشعر النبطي.. هل لي ببيتين؟

– أوه!(مندهشًا)..تِكرَمي.

«جا يشوف الحال كيفَه بعدما هزّه حنينه

وقبل يسألني..سألتُه:كيف حالك يالحبيب؟

قال..أنا كني غريب مضيّع دروب المدينة

قلتْ..أنا كنّي مدينة،تنتظر رجعة غريب»

– الله!

– «أتبعك! كيف أتبعك؟وإنت مقفي

غشيم من يتبع غرام المقفين

إن كان حلمي معك معناه ضُعفي

حسْبك ترى تحت الرواسي..براكين»

– جميل..جميل هذا الشعر، متدفق كحكمة جدة.

– صحيح، الشعر النبطي كذلك، يكفي أن تطلعي عليه لتجديه شعر الروح والبوح الشفيف المعبّر عن اللوعة والحنين والصفاء، شعراء كثر تغنوا به لأنه مقفّى يخرج في لحن

متفرد، فيتوغل فينا بما تحمله من لوعة فراق أو زفرة وجد أو لحظة صدق.

– الله! جميل هذا الإحساس وهاته المعاني، أنا مولوعة بالشعر، وفي يوم ما وقّعت على ديوان «أبو زيد الهلالي» بالصدفة، كان من أروع ما قرأت وإن خانتني بعض الكلمات من اللهجة.. ثراثنا كذلك يعبق بالزجل، أظنه لا يختلف كثيرًا عن دفئه، فالشعر بكل لغات العالم ولهجته يظل نبراسًا للإنسانية فينا، أتمنى في يوم أن يقربوكم منّا ومن لهجتنا، فنحن كوكب بالمناسبة يحبكم ويهتم لكم وينصت لأهازيجكم، محبة المغاربة هي التي تجعله متعطشًا ليعرف أكثر عن أخيه العربي.

– ما أحلاكِ وأنتِ تدافعين بشراسة عن بلدك.

– هي أوطاننا، واحدة، لو ندري..الحب مثلاً كفيل أن يجعل هاته القطع المتناثرة قارّة واحدة متلاحمة، الحب يجعل السخافات المحمولة على ظهر المواطن العربي أخف..لا أعلم، لكن لي مقاربة أدبية، لو كان مسؤولونا شعراء لتزوج الحرب بالسلام، والحمامة بالثعبان..لما انقسم العالم إلى دويلات..على حد اعتقادي البسيط.

ضحك: يا لكِ من عبقرية صغيرة! تعشي أيتها الدّهشة.

*****

العودة إلى الوراء منهِكَة يا «معتز»، لكنها تأتي بثمارها.. كنت مدافعة شرسة، متمنية لو أتيحت لي الفرصة لكنت قلت ربما الكثير، المهم أنني عدت من هناك بقلب جديد وتجربة جديدة، متى كنت أعرف نفسي أني ذات قول سديد؟ على الأقل ديوان أبو زيد الهيلالي لم يضع ثمنه سدى..كانت فرصة لأبيّن ثقافتي المتواضعة، أو التي خلتها كذلك في ذاك الوقت، لم تكن سحر أمك التي أمامك الآن..ربما الآن قوية بما يكفي لأن أجلس أمامك، أتنهد معك وأتمنى نفسي في محلك، أمك لازالت تلك الطفلة الكبيرة..بقلب يستوعبكما.

الساعة الرابعة إلا «إبراهيم».. أنتَ نائم والضمادة الساخنة تتلوها ضمادة باردة، أستحي منك بنيّ ومن ثرثرتي اللامسبقة.. وعلى غير عادتي، نائمٌ أنتَ وذكرياتي مستيقظة.

لقد كررنا مواعيدنا خارج المعرض، في المقاهي التي لم تطأها قدماي يومًا في طنجة..تحدثنا عن المرأة..المرأة المغربية تحديدًا، تلك التي تَعجَّبَ «خالد» من حريتها واستهزأ قائلاً:هنا النّساء بطعم البلور، هنا النساء بأشكالهنّ، هنا تجدهن متحررات أكثر من أي بلد عربي آخر.

في آخر حديث يجمعني به قال وهو يحمل بيده طاجينًا وتوابل وجلبابًا مغربيًا:دليني على ساحر مغربي متمرّس يفك عني ما بي. أعني أن لي حُسّادًا في العمل وهنا السحر على أصوله، أو عرّافة واحدة خطيرة تجعلني على دراية استباقية

حول الحياة.

– أتمزح؟ قلتُ مستغربة!

– لا بالتأكيد، أنا جدي ولا أخلط هذا بذاك!

– في الأردن من العرافات في القبائل ما لا يعد ولا يحصى، ومع ذلك يستهويك الحديث عن السحر المغربي، كأن صولجان الجن وعائلته وقبيلته وعشيرته مقيمون دائمون بالمغرب. عجبًا والله!قلت ساخرة.

– ما أحلاك حين تتوترين!

– للأمانة لم أزر يومًا ما عرافة ولا مشعوذًا.

– هراء يا سحر، اسمك.. قلبكِ..ابتسامتك..أنتِ سحر!

– أصبحت شاعرًا!

ابتسمنا. ودّعنا بعضنا بهدوء شديد وكأنه آخر وداع للقاء غريب، رغم تلك الوعود التي رأيتها بحجم الطائرة في عينيه أنه سيرجع ها هنا..سيعود يومًا ما كما قال، ليزور بيتنا ضيفًا رئيسيًا..بقلبي كان حدسًا يأبى السكوت، يصرخ أن لا رجوع..لا رجوع.

فصلُ الروح عن الجسد

الفصل الرابع

«تمنيتُ لو كان في اليوم خمسة وعشرون ساعة!

ساعةٌ إضافية، لأحِبّكِ فيها كما ينبغي».

كتبَ «إبراهيم» هاته الكلمات بخطّه الجميل على ورقة حمراء، أخرج المقص من الرف المحتوي الأدوات المطبخية، بإحكام طوى الورقة إلى النصف وأحسن قص نصف دائرة، وبأعلى مفترق الورقتين المتماثلتين أحدث فجًّا ليصنع قلبًا جميلاً. بقلمه الأسود خطّ كلماته الناعمة، ثم ألصقها على الثلاجة. في غرفة «مُعتزّ» وجدها تغُطّ في النوم بجسد مُثلّج، شعرها منسكب أسفل الكنبة، تشكّلت في قعرها كحمامة مرتجَفة، لم تنم طوال الليلة. قالَ: حبيبتي. تلا في نفسه وجع قلبه لرؤيتها معقوفة كمنجل، حمل ملاءة إضافية بغرفة «معتز»، ضمد بردها، قبّلها وهو يرغبُ في أن يزرعها بداخله، وهو يتمنى لو كان باستطاعته وضعهما تحت جناحيه، لعنَ ألف مرة أعماله المتبقية فوق مكتبه..أغلق عليهما باب الغرفة.. ثم ارتحل.

البيت هادئ و «إبراهيم» يأمل من يومه أن يكون بردًا وسلامًا، الحرارة بلبنان قد حلّت بلا سابق إنذار، والموسم

من أبريله الكاذب يتوعّد الناس بقيظه الشديد، هو أشد ما يكره تلك الحرارة المبعثة للرطوبة حد التصاق الجسم، يصبح فيها جلده كغراء.

وهو يسوق يحمد الله على نعمة المكيّف، قال دائما إن المكيف هو الاختراع الأكثر إفادة للبشرية. ماذا ستكون حالنا من دون تكييف؟! قِطَع زبدة سائحة! قهقهة في نفسه وهو يستمعُ لمحطة إذاعية صباحية.

تذكر سحر النائمة نومَ الكافر في قبر !تساءل ما تكونه بلا تلطيف للجو، شوكولاتة؟!

يشتاقها ويزعجه تفانيها الزائد عن الحجم، يريد أن يربي «مُعتزّ» الرجل القوي، هي تدلله، وتعطيه من حنانها ووقتها وكلها ما لا تعيطه لي! مستغيظًا..ثم لاذت ابتسامة خفيفة على محياه؛ يحبها.

لطالما كانت متمسكة باسم «معتز»، تقول له ارتباطًا بالدولة الفاطمية، يضحكه عندما تمثل دور المغرورة قائلة بصوت مسرحي جهوري:

«الدولة الفاطمية هي أنا، وسوري عالٍ بعيد، وسوريالي سادٍ يفتك بالذين يحاولون المُضي لاختراق هويتي، لي مناعة إسماعيلية، فكل قصري عروش من ماء، لذا سموني مكناسة الزيتون، سلالتي نقية من آل بخار لقاطني الرياض،منهم

من قال إن لي إرثًا هناك.. ووجدتكَ..صدق المتلصصون وما كذبوا،سلمتُك القيادة والريّادة وأصول التخطيط والهندسة، ووضعتك على قائمة يومياتي بما فيها خزعبلاتي، لك تُلجلَج أصوات الأقفال الغليظة، لك تُطاع خلايا أركاني الحربية والعسكرية..تُراق دمائي وتُسفك علنًا، ولا أحد له حق التدخل في شؤوني الداخلية غير الداخل القابع وسط كتفه المتربع على مُخططات الدولة العظيمة».

تذكرها حين تختال بغنج ودلال، حبلى بـ «معتز» وهي تتمنع حينًا وتبتسم له حينًا..تكيد له، تطبخ شوقه على أقل من مهل، تعقد الحاجبين تارة وتكشّر عن أنيابها ساخرة تارة أخرى.. تقول: ولدي سأسميه معتز.. وابنتك فلتسمها ما شئت.

تقول إن المعز بالله–«المعتز» كما تسميه–شخص طباعه غريبة فريدة، منذ قرأت رواية «مجنون الحكم» وهي تتحفه بأقوالها عنه، حتى صار «إبراهيم» يحفظ معها الدهاليز التاريخية،«المستبد»كما تقول،أحد أشد ملوك الدولة الفاطمية.

كان المعز رجلاً مثقفًا يجيد عدة لغات، مولعًا بالعلوم والآداب متمرسًا بإدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها، كيّسًا فطنًا يحظى باحترام رجال الدولة وتقديرهم.

وانتهج سياسة رشيدة، فأصلح ما أفسدته ثورات الخارجين

على الدولـة، ونجـح فـي بنـاء جيش قـوي، واصطنـاع القـادة والفاتحيـن وتوحيـد بـلاد المغـرب تحـت رايتـه وسـلطانه ومـد نفوذه إلـى جنـوب إيطاليا.

ولـم تغفـل عينـا المعـز لديـن الله عـن مصـر، فكـان يتابـع أخبارهـا، وينتظـر الفرصـة السـانحة لكـي يبسـط نفوذه عليها، متذرعًا بالصبر وحسن الإعداد، حتى يتهيأ له النجاح والظفر.

لكنه كان غريب الأطوار، من النكت التي أحاطت حاشيته مـا كانـت تدهش سـحر، تلـك الأسـرار الصغيـرة التـي تناقلتهـا نميمـة التاريـخ عبـر الحضـارات والقصاصـات مـن حـواشٍ وجَـوَارٍ، هـي مـن جعلتهـا تقـع فـي عشـق الاسـم.

كأنها تمنت ولدها «مجنون رجولة» لا «حكم».

*****

ليس هناك من رجل جميل، بـل هنـاك رجل وسيم، ونصف وسـامة الرجلأخلاقـه. «إبراهيم» كـان رجـلاً خلوقًـا، باسـق الطـول متناسـق الهيئـة، جميـل المحيا..لكنـه رغم كل ذلـك لـم يكن إلا إنسـانًا فـي عمقه، فـي صوتـه نبرة صدق وحزم، تجده حاسـمًا فـي مبادئـه، مطـورًا لقناعاتـه، مجـددًا لهـا نحـو كل مـا هـو إيجابـي.

ثلاثون سنة كانت كافية لتُعلّمه ما لم يتعلمه امرئ في دهر، هي الدنيا حظوظ، و«إبراهيم» يؤمن بشدة بالعمل المتزن المُرافق لإنسان نبيل يحترم النبات والحيوان والإنسان والجمادعلى حد سواء. مرهف الحس، يثابر في الشركة لكأنها ملكه،تراه بحزن العالَم حين يفقد صفقة ما، وفرحًا ملء السنابل الشامخات وقت ينهي عمله على أكمل وجه.

العلم وحده في حياة الرجال ليس مقياسًا حقيقيًا لرجولته، هي المواقف تغربل الصالحين من الطالحين، شدة الصبر والعزم، والدقة في اتخاد القرار، بل التزامه ووعوده، كانت قطعًا أشياء جعلته يبدو في عين سحر ضربًا من المحال، فارس الأحلام، كان رجلاً يُعتمدُ عليه.

لم يكن من الغريب أن يقف الموظفون لإلقاء تحية الصباح عليه. يسود احترام عفوي بينه وبين الموظفين زملائه. النوايا المُبيّتة من بعضهم لبعض كوجوههم.. حسابات مكشوفة، يحب الأذكياء، لذلك هم على قدم وساق دائمًا لحبْك خطط رديئة الصنع، ليس دائمًا ما تسلم الجرّة، على حد قول سحر؛ الجرّة يطبخها هو على نار هادئة جدًا، متفانٍ ورسمي، لغته منطقية..رياضية، تستهويه الأعداد العقدية.. المعقّدة، يفكها بلا أدنى عناء.

هي كثرة مسؤولياته فحسب، وانشغالاته التي لا تنتهي، والسفريات المؤجلة، والفواتير التي–وإن لم تكن من تخصصه

هو- يفضل مراجعتها على مهل، يد يُمنى تستحق الثقة ولا ضير، فالمدير العام الأعلى للشركة صديق الدراسة، وهو فقط يجيد التعبير عن تلك الصداقة لا غير.

على المكتب المتقنة زواياه، الورود الجميلة التي يحب، علبة بها تمر ملفوف بعناية بوبر شوكولاتة، تلك لمسة سحر، صورتها و «معتز»، الأوراق البيضاء المصفوفة كجليد ينتظر تزحلق الحسابات عليه.. كل شيء على ما يرام..أزال سترته ولف بأناقة أكمام القميص، لفّة، لفّتين.. الجو بمكتبه لا بارد ولا ساخن، لكنّه أحسن حالاً خارجه، الناس هناك كأنهم في حفلة شواء، مرّر يديه على وجهه كمن يستعد لسباق الألف متر حواجز.

فواتير بناء مصنع هناك. إجراءات لسفر مصر. اجتماع مجلس الإدارة على الساعة الحادية عشر.. والهاتف يرنّ.

- صباح النور، طيب دعيه يدخل.

يدخل المهندس جوزيف إلى مكتبه، البدلة سوداء، القلب كذلك، النظرات متعالية..ضيق خفيف، يتلعثم النفاق فجأة:

- صباح الورد مستر إبراهيم، كيف الأمور؟ إن شاء الله بخير!

- بمعية الله، بألف خير.. ما الجديد؟

– كنت أريد أن أخبرك أنه يتعذّر عليّ الذهاب إلى مصر،مازال هناك الكثير من الأشياء تنتظرني في مصنع «صيدا»؛ قسم الإنتاج متوقف بأكمله.

– أها.(مُمعن النّظر في غريمه).. ثم صاح بأدب: ومتى كان مصنع «صيدا» مشتغلاً أصلاً؟!قسم الحسابات كذلك، مقلوب رأسًا على عقب.. ما بك يا صاح؟ مرّ وقت تُمنّي نفسك أن كل شيء بخير؟ ولعلمك، «مايك» كاشف لعبة المصنع،ذاك وأن بيعه أضحى أولوية.

– لقد أخبرتك قبل سفرتكما إلى لندن. الأوضاع هناك تحتاج إلى مواكبة وأنا صراحة ما عاد باستطاعتي تحمّل مشاكل العمال وسوء التسيير والإدارة و.. (يفك قليلاً من ربطة عُنقه) أمرّ بظروف استثنائية كذلك.

– أوه! ما الأمر؟

– في إجراءات الطلاق، وصلنا أنا و«ميري» لطريق مسدود.

رد مستغربًا:لا تقل هذا يا رجل. لم تمر عليكما السنة، كذبة أبريل ما هيك؟ مازحًا.

– وهل الكذبة تجوز في أمر كهذا؟! «ميري» تقول إنها لا تريد أن تنجب مني أطفالاً، وفي الوقت الراهن..يؤسفها أنها تركت الغناء لأجلي.. (يطأطئ رأسه) عمومًا اترك شأن

مصيبتي التي حلّت عليّ من حيث لا أدري، أما بخصوص مصنع «صيدا» سأتدارك الأمر، لأجل إجراءات الطلاق لا يمكنني السفر حاليًا.

– جوزيف، أنت تحبها، لاشك يا رجل! غظها بامرأة أخرى.. (مستهزئًا)، النساء تكرهن المنافسة، ثم يا أخي ناقشها في الأمر، تحاورا وتنازلا قليلاً من كبريائكما. أين ستجد امرأة تحبك ك«ميري»، هوّن الأمر ولا تستعجل..ثم بخصوص مشاكل المصنع سنناقشها بوضوح في الاجتماع بعد قليل.. أخبرني عن قهوتك، كيف تريدها؟

– يشعل سيجارة، مُرّة أرجوك!ثم يبتسمان.

*****

الوقت يجري سريعًا، بين الاتصالات المتعاقبة يُسجن «إبراهيم»، الانشغالات لا تنتهي والرجل أولوياته غرف منعزلة، كل مشكلة في سجنها الانفرادي بعقله، لا شيء مُتداخل.

سحر تستفيق لتجدها قطعة غمام منفردة عن السرب، أطرافها بالكاد تتعرف عليها، شعرها يغطي كَتفًاعوجاء وتلك الوضعية من النّوم،«معتّز» يُناجي ملائكته بابتسامة متعبة.. الساعة الحادية عشر والصباح ارتدى ملاءة الشمس الحارقة مُعلنًا عن يومٍ فارّ من جهنّم، لم تكن تدري أن الليل كامرأة

غاويـة، كعب عـالٍ بوقت حـاد ينصل الذكريات، يخترقهـا بقسوة فتكسرها إلشظايا أحداث بـلا بدايـة ولا نـهايـة، فستانـهـا الأحمر كالحب المنسدل علـى كتفه، امرأة الليل كليلها الذي باع لها الذكريات البائتة ولاكها معًا، لا جدوى.. قالتْ وهي تحضن طفلها المحدق ببراءة إليها، تنتظر منه أن يواسيها على أحلامها التي ما عادت تملك منها إلا أسماء أبطالها، الاحلام التي توقظ عمق الأسئلة، لكأن بالفضاء العبق، إشارات يرسلها إليك القدر كي توقظ أنين الكلام، في سقف الحديث لا يوجد غير الحب وبعض الحياة التي تلخص يومها. يومها «إبراهيم».

بيدين مرتجفتين، مسكت بوجهها تطوقه كسماء تلف خصر الأرض، العينان بحر ميت تطفق على سطحه آلاف الأسئلة المقيتة التي سممها الليل، المخيلة بحجم الغابة، وأشجار الكلمات باسقة ومتشابكة، ترتعد، وسُمّ «خالد» ينبت كأفاعٍأمازونية، اللسان يبلع بعشوائية ريقها، بالكاد تبعثه إلى معدة يضج بها خواء. ما بي؟

ترددت الأسئلة في يمّ ما قيل ليلاً، كحجر أصم يُرقص بحيرتها دوائر تتشكل ثم تتصاغر في تماهٍ متناهي الدّقة، صوّبت رأسها المتعب الثقيل، على الثلاجة قلب أحمر، تناولته ببرودة، قرأته بعياء واضح المعالم. الكلمات.. تختلط عليها الدموع، العينان كجلمود ثلج يُصادف خطًا مسترسلاً

من نـور.

– الكل يقول الكلمات تلك..الجميلة تلك.. الأنيقة تلك.. المُفتعلة تلك.

toujours des mots..des mots faciles

Des mots fragiles

C’était trop beau
pas pour moi ،Merci
Mais tu peux bien les offrir à une autre
qui aime le vent et le parfum des roses
les mots tendres enrobés de douceur ،Moi
se posent sur ma bouche mais jamais sur
mon cœur

Paroles Paroles Paroles

ساعة إضافية لأحبكِ أكثر، أعشقكِ كما يرضى عليّ حفدة الوله والتيم، ساعة أخرى تليق بامرأة وحيدة في بيت، ساعة لأتصلب كعاشق، ساعة لنتوحد لتطير أجنحتي في أخاديد عسله، ساعة واحدة وحيدة.. ليحبني فيها كما ينبغي لعاشق أن يفعل.

لا عاشق تردد على محراب تراتيله، يقولون أشياء يجهلون معانيها.

لا..رددتْ، أمسكت مرآة بيدها، هل كانت بالحلم؟ تمسّكت بالصورة أمامها بدا وجهها مشوّشًا، مرسومًا على أبعاد جنونية. قالت بصوت هستيري خفيف

– خالد لم يذهب ولم يتركني، خالد اعترف لي بحبه وقال، قال أنتِ أجمل من أن ترتبطي بإنسان يُضَخّ الموت بعروقه، أكبر من أن ترتبطي برجل الموت، أنتِ الحياة.

دموع لا تأتي، تراها معكوسة في المرآة، متحشرجة تقف في البلعوم مندهشة، أنهكتها الخيبات والأسئلة، تتمسك حتى تبخّرها زفرة ملتهبة تسري في كلّ الجسد.

– أنا لم أكن أنتظر منه رحيلاً بائسًا، كنت أتمناه يرحل بشموخ، آخر رسالة! يا إلهي! أنا أمزح بالتأكيد، لا يجب عليّ أن أتذكر أشياء كهاته، قديمة برائحة الزّعتر، كحول طبي أحتاجه لأستفيق.

أمزح بالتأكيد. قال في آخر رسالة قصيرة.. قصيرة جدًا،

عارية جدًا، قاتلة جدًا: «سحر.. أصبت بسرطان في الدماغ. انسيني. دعواتك».

أمزح بالتأكيد، ساد برد بأطرافي، أراه بالمرآة، أنا متعبة جدًا.

*****

ودّعت سحر «خالد» بخيبة،هل أحيانًا يحتاج أحباؤنا اختلاق كذبات بحجم الموت حتى يرحلوا؟ هل الحب يحتاج إلى خطط صِبيانية تُفبرك لعبة رديئة الصنع لنلعب بقلب؟

بالعادة يكون الحب الأولمؤلمًا جدًا، كادت سحر أن تختنق بكلّ شيء، الأحلام تصاعدت في ليل متهالك، كفراشة فردت جناحيها للنور فابتسمت قبل أن يحرقها وهج القنديل، هي الذكريات شمعة تقتات من نفسها عساها تُوفر القليل من الضوء، غزارة العتمة تتضخم وتتعالى فتموت الشمعة منصهرة على منضدة، تختفي رائحة الشمع المسكوب بلا رحمة، ويعود كل شيء لأصله، العتمة تضلها حالكة والنور مضاء في كل زوايا الروح، في القلب المضطجع، تُحدق سحر في الأشياء المتلاحقة على شكل قصاصات تنتعل قلبها، تجري به في ساحة حروب منسية،عاشت يومًا بسبعين سنة، وليلة وألف سؤالٍ حرامي، العقل الباطن متوقف، كادت لا تعرف النوم، لم يتصل زوجها، ابتسمت وقالت ببلاهة: هم الرجال،هكذا.

وقلائل من يدرون أن النساء تُسجل بأصابعها زهورًا تلتقطها، مكالمات مُقتضبة تسألها فيها عن حالها تعيش على وقعها النساء مُطوّلاً.. واليوم ليس كأيام الأسبوع والسنة، صميم الصيف مرّ بأبريل على شكل سحابة تبلع كذبًا، فيتمنى البيروتيون أن يهطل الغيث، حيث عاصفة شرسة وحيث كلمات درويش تتقافز مطرًا غاضبًا:وهل في وسعي أن أختار حلمي لئلا أحلم بما لا يتحققّ؟

هل بوسع البيروتيين مثلاً أن يختاروا طقسًا غير طقس الله؟

البلد المتناحر والطوائف كساعد الرجل القوي، مفتولة ومشدودة أعصابها، وسحر وسط بيروت كالشعرة في العجين، بيروت التي تحتجز ضلوعَها في المطاعم الفاخرة التي يذهبان إليها معًا عند كلّ عشاء عمل، أو إلى بيت حماتها حيث من الواجب عليها أن تبدو عاقلةً ومُهذبة متى استطاعتْ أن تتجنب لكمات زوجة أخ «إبراهيم»، حين تصوّب إليها بعضًا من النكات المقيتة..وقتها لا يسعها إلا أن تطأطئ رأسها احترامًا لكُنتّها، ذاك ما تربّتْ عليه، لكماتها في رُقيّها وتعاليها دائمًا عمّا يأتيها من نواقصٍ، عملاً بالمثل:إذا جاءتك مذمّة من ناقص.

بيروت الجميلة تسع كل الجميلات، لكلّ بذخ ولكل فقير.. تلك اللؤلؤة المكنونة المرصّعة بعناية الله تُضيء بقلب سحر، فكاد السّرد يتخمّر ليبرق ذات يوم في «قصص» ويزين جيد

«كتابة».

بيروت، المرأة الفاتنة التي تلعب لعبة السياسة في ملهى ليلي تُفرق أموالها في ليلها المتقاعس وتصحو في نهارها المتأخر، بشعة وقد زال مكياجها، فقيرة وقد أنهكها زيف الترف.. كبيرة والتجاعيد محفورة بما يكفي ليشيخ التاريخ.

بيروت قِبلة الأدب والثقافة،قُبْلة الكلمة الجميلة، ولكل هؤلاء الأدباء الذين أحبّتهم جدًا، كان على نفسها أن تستكين لتخلو بأفكارها..لنقل إننا حين نكتب ننعزل، أو ربما من علامات الإبداع العزلة..فالعزلة مع من تحب ازدحام من نوع آخر.

كنّتها صديقتها الأنيقة، حيث اللباقة تطريز فاخر للإنسانية فينا،الاحتكام إلى تاريخ «صيدانية» عريقة هو الاستماع المحرك للقلم في سحر، أم «إبراهيم» سيّدة راقية تُشبه بيروت في كلّ شيء، هي التي تجمع أفراد البيت على كلمة الحقّ، هي الحضن الآخر الذي تهرع إليه لتبكي..بعض المقاهي كذلك، كتلك التي شهدت أقوالاً ما أو أحداثًا مع «إبراهيم».. صديقاتها..الكتب في شارع الحمرا مع كأس قهوة أمريكية.. صديقاتها.. العطور الجميلة التي لا تقتسمها مع أحد.. صديقاتها.. فقط ذلك وكفى.. لعلّ الوحدة أحيانًا صديقة عن اختيار،سحر لا تتقاسم أسرارها إلا مع ماضيها، وبعضًا آخر مع «إبراهيم»، وأشياء أخرى ماتت مع صاحبة السر المجيد.

كانت تمشي في البيت تعتمر أركانه وتستشعر غرابتها، الأوراق أمامها مُغتالة، لا تدري ما كتبتْ وما قالته، ولا تُدرك كيف مرّ الصباح دون أن تترك الفراشات آثارًا، ولا كيف أتى المساء الثقيل، وكيف أخفى صوته الشاحب وهو يسعل الغروب، ولا كيف تجرأت شمس اليوم أن تمر من على الشرفة دون أن تضع لها في أصيص النعنع حكايات مغاربية!

تردد الخوفُ أكثر، اقترضَتْ بعض الدّفء من حرارة ابنها، أخْفَتْ جسدها في الملاءة ودفنتْ رأسها تحت وسادة، محاوِلة بذلك إبادة الأسئلة المتلاحقة، في صدرها احتمت بـ«معتزّ»، وتركت الحال كما هي عليه، الغداء بلا طعم يستعرض نفسه على المائدة، الكراسي الخشبيّة منقوشة بالفراغ تختلي بنفسها. كل شيء في محله دون محلّ.

هذا المساء يجرّ أذيال الحزن، يتراءى لك الشجن منبطحًا على بطنه في العلياء، القمر منهمك في قراءة أخبار الطقس، والنجمات هناك تسترق السمع على البيوت المتطاحنة، لا شيء يجعلك تبتسم.

غطّت سحر في نوم مُفبرك، الجفن مطبق والعقل يراوغ اللاتفكير.

جميع الأشياء تتمسك بلحظات قبل الكارثة:

«إبراهيم» يدخل مصحوبًا بحقيبته، قلبه يخفق مهتزًا خلف السيارة وسيارتها الراكدة في مكانها، لم تخرج سحر إذن،ماذا لو عثر لها على دليل آخر لقبوعها المشكوك في أمره في البيت؟

في الحديقة ورودها لم تُستأصل، النعنع من أصيصه بالشرفة يحييه بأوراقه التي تعبث بها الريح، جَرّبَ أن لا يفتح بمفاتيحه، رنّ الجرس..مرة..مرتين، أدار الباب برفق لص متسلل، الأضواء في محلها، صورتها البشوش بحناء مخضّبة هي الوحيدة من تستقبله، يعانقه شوقه القديم لتلك اللهفة الراكضة عليه، لاشيء من ذلك، كل تلك البروتوكولات زالت.

يضع الحقيبة. يشتم عطرها المختفي بين رائحة الطعام، الأشياء التي يُحب في مكانها المتهالك، الورود الصلدة متسمرة في المزهرية، التلفاز يحكي أخباره في إحباط متناثر، لا حس لولده، الباب الموارب لغرفة النوم لا مفتوح ولا مغلق، الضوء الآتي من غرفة المعيشة يمد خيط النور إليها، يمرّ برفق على وجهها المندسّ في مكان ما، البرودة رغمًا عن أنف الحرّ، وجدها تحضن ذاك الخيط المسترسل من النور و«معتز» يقتسم ثديها العاري، يتقطر حليبها، مسامات جلدها تتنفس بصعوبة.

كل الصور تتخالط، يعيد بذاكرته إلى الوراء قليلاً.

«إبراهيم» يدخل بحقيبته، قلبه يخفق مهتزًا خلف السيارة، وسيارتها تلمع في مكانها، خرجت سحر إذن وغسلتها، ماذا لو عثرتُ على شوقها إليّ كدليل آخر على أنها تعد لي مفاجأة؟

في الحديقة ورودها التي تقد عبيرها في الصبح قد شُذبت،النعنع في أصيصه بالشرفة يحييه من كأس شايها العملاق فوق الطاولة، يُجرب أن لا يفتح بمفاتيحه، يرن الجرس..مرة..مرتين، يدير الباب برفق اللص العاشق، الأضواء في حلة شمع أحمر، صورتها البشوش تعانقه بفرح كف العروس للحنّاء، يحتضنه شوقه القديم حين كانت تنتظره في المغرب متذمرة من سفراته وبُعده عنها، لا شيء من حزن البارحة، لا شيء من ذلك، كل تلك البرتوكولات الموجوعة زالت.

تأخد عنه سحر الحقيبة، يشتم عطرها الراقص على مسرح مباهجها، الورود الصلدة متسمرة في المزهرية، التلفاز يُغني أخباره في تناغم متناسق، لا حس لولده، الباب الموارب لغرفة النوم مغلق، الضوء الآتي من غرفة المعيشة يمد خيوط النور إليه، ورود حمراء متناثرة وكلمات الحب ملقاة بجسدها العاري تُغريه، وسحر تدس قبلتها في فمه، صدرها الحنون يتجرع أحزان اليوم..يومه.

*****

بعد أن أكل «إبراهيم» ذاك العشاء، تناول تلك القصاصات المصفوفة بعناية تحت المزهرية، كأن للمزهرية تلك القوة على الريح كي لا ينثر ما تبقى من أحاسيسها. لم يحرك ساكنًا ولم يوقظها، بل ترك سحر تتظاهر بالنوم وتظاهر هو بالصبر، احتمى بابتساماتها القديمة ورجّح فكرة الدورة الشهرية التي تُدمّر مزاجها، المزاجية.نزلت الكلمة على رأسه مُهَشّمةً كلّ ظنونه،ذاك الشعور القبيح لم يزرها إلا لمامًا في حبلها.التهم ظنونه وفكّر في أن يعيد قراءة تلك الكتابات التي دخلت بقوة إلى بيته، كانت العناوين تتقاطع، وخطها رديء يصعب عليه فك دهاليزه:

الأحلام نوعان، السعادة تطل مهزومة «أعر وجهك ملامحي»كان اسمه..مغربًا.

نسخ «إبراهيم» ما كتبت ووضعهم برفق في ملف خاص، بمحفظته أقفل على المسروقات مُتوحدًا مع ذاته.

لا أدري كم من الوقت نظر إليها! كلوحة سوريالية زيتية تحتاج إلى جهابذة الفن كي يتذوقوها، أبعاد طريقة نومها وولدها المُحتضنُ برهبة القديسين، الأضواء الخافتة وشعاع الضوء، ذاك القاسم لجسدها نصفين، قمر.نصف مضيء وتخوم بيجامتها عتمة.الملاءة البنيّة المتمردة وزهور التيوليب تتسلق السرير.تبدو غامضة. سحر، كتصور خيالي.. كسيطرة أحلام.. هي كما هي عليه تتلاشى صورةً تظهر

فيما بعد، خلف الحقيقة البصرية الظاهرة.

لا أدري كم من الوقت نظر إليها، ولكنّه خُيّلَ إليّ أنه قد أنفق في التطلع دهرًا.. ولم يسأم ولم يكلّ..هي كما عليه. نصف نائمة كغول حكايات الجدة. وهو كذلك يُبصرهاكاأعمى، حُققت له أمنية النظر لبرهة. هي خاطرة مُعلّقة في الليل. هي شذرة خاطفة تقول الكثير حدّ الكتمانْ.

لا أدريكم من الوقت مرّ حتى يأخد قرارًا بالنوم في غرفة «معتز»، ويترك لهما الغرفة، كما هما فيها من انطواء.

نظر إلى تلك الطاولة الأنيقة بعشائه، كل تلك الأطباق التي تقول له فيها سحر: لستُ مقصّرة في مواعيد أكلك! أرأيت كم أنفذ أوامرك كما يجب!

عندما يغيب الحق يتقلص الشعور بالواجب، وهما هكذا. بسهولة قصوى سقطا في كمين الحزن واللافهم.استدرجهما الخصام إلى شِراكه.

لسنا مجبرين أحيانًا أن نفسّر وضعيات تتقمص أوقاتنا.لسنا أحيانًا إلا مخدوعين من الحياة موهومين بقدرتنا على صناعة الفرح..تمر الأوقات العصيبة في الليل ويصعب النّوم، حتى النعاس يضرب مواعيده حيث لا ندري، فسحر وقد زارها قلمها بعد قطيعة تجدها تبحث فيه عن نفسها الضائعة لفترة من الزمن بين أبطال الماضي وسرمد المستقبل.. و«إبراهيم»

الذي ينتشل أحلامهم من السماء، يده المغلولة حدّ سقف الإمكانيات متعبةٌ.. فإذا به لا يجد تلك اليد الأخرى التي تربت على كتفه.

ليلة أخرى إذن.أولى.. بعيدان عن بعضيهما. جسدان مقيمان في أمكنة ما في البيت. دموعها المالحة منجرفة. صوت الرعد. والغيوم الحبلى بحرارة اليوم حطت زخّاتها. نقاط سوداء..يبصرها «إبراهيم»من النافذة.

ممد.. أطرافه الرخوة في حالة سراح مؤقت. معتقل لتلك المزاجية التي استولت على بيته من حيث لم يحتسب. وهي التي كانت تُقسم أنها تموت إن فارقها بجسده ليلة.. ماله لا يرى الموت بها وهي المستبدة في السرير مُحتمية بابنهما؟!الليل قاهر!

تمنى لو استطاع أن يزيح عنها قناع النوم ذاك. أن يقتل غموضها. أن يقبّلها ويبكي كطفل آخر. رجلٍ عالق في وحل. ينبش قلبه، ينبش ثم يدفن أوهام الحزن. يضع التراب الكثيف ويغلق الحفرة. حين ينام.ينبث من رأسه سحر. يشتمّها كزهرة اللوتس ويضعها بقلبه.

يتذكر والدها حين وضع إصبعه الإبهام على عينه، قال: أرأيت هاته؟ قال: هو،عينك عمي..قال: بل تلك سحر!

ليلةٌ أخرى،قفلة حزن لنغمة مُنشقّة من الوجع.اللحن يبكي

بين الصمت.نغمة شاردة صوتها البائس كأنه مقصلة زفّتْ رأس النّوم بحبل مشنقة.

الخيارات والانزياحات مُرتبكة، وقليل جدًا ستهدأ الظنون، ستنتعل أشواكها المُكأكأة في وحل اللّيل.

فصلُ الزّمان عن المكانْ

الفصل الخامس

- صباح الخير حبيبي.

- صباحك نور.(على ملامحه غضب قديم) كم الساعة؟ يبدو أني تأخرت!

- وهي تزيل الستائر عن النافذة، اليوم الجمعة حبيبي، أنسيت؟

- العاشرة! وهو يزيل على عينيه عتمة النعاس، يجب عليّ أن أذهب إلى المكتب، مسافر أنا مساءً لمصر.

يشك في قلبها سكينا باحترافية السفر تردد بحروف مشلولة، بابتسامة صفراء تقبّله على عجل: يالله حبيبي! الحمام مملوء ماء ساخنًا، استحم وتعال نفطر معًا.

- سأستحم وأذهب، افطري أنتِ، أين معتز بالمناسبة؟ لم أره من يومين! (بتذمّر).

- يلعبُ أمام التلفاز بوداعة.. تمرر فطورها وحدها وتتغاضى عن غرابتهما.

تناولت فطورها ببرودة دم، استحمّ هو وجرّ حقيبة عمله.. في الصباح المتهالك اتضح معالم يومها المتجدد هذا، المتجمد هذا، زوجها مسافر وسيتركها بذاك الحزن العميق ودون أن يحط إصبعه على الجرح، انهمكت في تصنع مواقف حتى يمر اليوم بسلام،ما دام راحل عنها راحل، فلمَ ستفسد عليها وعليه اليوم برمته؟ ثم لا نقاش بينهما، لا جدال قديم عماذا سيختصمان؟ عن نومها وحدها أم عن انشغالاته التي تنتهي بها خارج دوامة حساباته؟

ثمة مشاكل تأتي بالمجان، خلافات لا ثمن لها ولا سعر.

استُهلكت الساعات القليلة بسرعة، قضتها هي في مسؤوليات البيت وفوضى البارحة عارمة، قصاصتها، أطباق العشاء بنفس بريقه بريحة أقل لفتًا، وتلك الشراشف هنا وهناك.

استغرقت وقتا تعيد نواميس بيتها لكوكبها، لم تغفل عن شيء..انتهى بها المطاف وهي منهكة على الساعة التي تشارف الخامسة مساء، عجبًا! أسرّت لنفسها، قال إنه سيسافر.. ولأول مرة لم يحدد لها وقتًا ولا ساعة ولا حس ذاك الحزن على تركها معلقة لوقت في البيت و«معتز»، وهي الغريبة، الهاتف يرن..إنها والدتها.

- أمي.. (تنسكب الدموع)، توحشتك!

- ما بكِ؟ ما فعلته لإبراهيم؟ كيف حالك؟ ما بك تبكين؟

أمها بأسئلتها الكثيرة المتداخلة تفسد عليها الأجوبة فتتلعثم: أنا بخير اشتقتكِ واشتقتُ أبي..أخبريني كيف حالكما، ما الجديد؟

– نحن بخير حبيبتي، كيف هو حبيبي معتز؟ أين هو؟

– يلعب ماما بدباديبه، كان تعبًا، تؤلمه أضراسه المندفعة، إنه يكبر.

تحاول إخفاء تعبها.

– ائتيني بإبراهيم لأحدثه، اشتقته.

– آه يا أمي! هو بالعمل حتى الجمعة..تبتسم، وسيسافر هذا المساء لمصر.

– ألم يأت من أسبوعين من الصين؟!

– الصين كمصر يا أمي، المهم سلامته وعمله.

– طيب.. زوجك يا سحر حطيه في عينيك حبيبتي، وصيتي، هو وطنك هو عائلتك.. هو...

– هو كل شيء يا أمي.. (مقاطعة أمها)، هو كل شيء؛ لا تنزعجي..سلّمي على أبي.

– طيب حبيبتي، مع السلامة.

*****

الساعة السادسة إلا «إبراهيم»، بدأت المخاوف ترتعد، فكرت بأن تمسك هاتفها وتكلمه.. لا؛ لمَ سأكلمه، هو مشغول وينزعج من اتصالاتي ودائمًا يجرحني، يفصل هاتفه ويتركني بلا أجوبة.

أترك له رسالة قصيرة؟ لا؛ لمَ إرسال رسالة لا يجيبني فيها؟! لا جدوى، عادته التي أمقتْ.

«سيأتي» قالت بيقين، أمسكت «معتز» ذا العينين الرماديتين وقبّلته بخيبة، ما لبث الفرح يتكاثر شيئًا فشيئًا في عقلها المشوّش.

في الشاشة الرقمية الكبيرة بالصالون كارول سماحة تغني «اطلع في هيك..هاودي مش عينيك..هايدي مش نظراتك يا حبيبي ومش إيديك.. في شي عم بيغيب! أنا عم حسك غريب..ضايع، مني ضايع..حدي وعم دوّر..عليك...».

سحر تغني بحرقة، و«معتز» أمامها يلعب بالماء الدافئ، يدخل «إبراهيم» متسللاً للبيت كسارق مسافر، صوتها من الحمام يأسره، شوق لا يعرف كيف يهزمه، أن أصمت.. هكذا قال، كانتْ تضحك مع «معتز» فيما لم تنتبه لقدوم زوجها..تخاطب «معتز»:

«ياالحبيب ديالي أنتَ، ستكون لي رجلاً..رجلاً يسأل عني، يهتم بي، رجلاً يضعني في عمله..صحيح ماما؟ صحيح

حبيب ديالي أنا؟

معزّو، اشتقتُ ماما كذلك.. ماما اشتاقتْ لأمها».

تبكي وتضحك، و«إبراهيم» على الباب يسمع لهرطقاتها واعترافات الليل.

«ماما ليست وحيدة ما دمتَ معها..صحيح ماما؟» و«معتز» يجيبها بضحكات بريئة، يرج بيديه الماء فيتطاير رذاذه..ودّ لو دخل وانتشلها من أسئلة الأم والابن..أمسك بمقبض الباب.. تراجع في آخر دقيقة، انتبهت سحر إلى ظله هناك.

في غرفة النوم، لم يطلب منها تحضير حقيبته، وجد أغراضه بعناية فائقة، كما تفعل دائمًا، ما الذي اختلف؟

المختلف دموعها المختلطة بابتسامتها، أين هي؟احتضانها له كأنها تراه لأول مرة ولآخر مرة كذلك..اختلف أنها ليست هنا لتوصيه وتقبله، لتهتم به كأن قطعة منها ستخترقها وتتركها مُختنَقة.. أين كلماتها البهيّة على أوراق تقصها؟ من علمني أن أبدع لكِ شيئًا، أتحدى فيه لغتي ولغتك معًا..أين لغة الحبّ؟ أيننا يا سحر؟

كان وحيدًا في غرفة النوم، حقيبته تنظر إليه في بأس شديد، معطفه فوقه كي لا يبرد..حتى وإن تظاهر الطقس بالحر، أحس بدموع تخنقه، تلك الأسئلة تركها معلقة على

مشجب.. جرّ حقيبته كأنه يمرّغ جثة السفر في الأرض، لكأنه يعاتب الحقيبة المستكينة، وجدها بغرفة الصغير، قالت بعفوية:

- بابا هنا، فلنودعه، هيّا.

رمقها بربع نظرة، التقط منها ولده اشتمّه، قبَّله، لاعبه في دقائق.

لا، لم تصدق! مرّ من جانبها كأنها لم تكن، لا قبلة..لا سلام..لا التفاتة.

تركها مصدومة و «معتز» بيديها.
نعم.. وصد الباب، تركها تنظر بعين الرعب إلى الباب الذي بلع جسده الراحل..متى طائرته؟ أين سيكون؟ ما طبيعة عمله هناك؟

لا مجال..السيارة تنفث دخانًا، وصوت المحرك الذي داس عليه «إبراهيم» بغضب، كومضة شعرية تباغت الشاعر..لا مجالَ أن تفهمَ شيئًا، لا شيء البتة.

*****

في الطائرة، العاشرة مساء..يتأمل وجه الحبيبة في هاتفه المحمول،يقلبها بين كفه يمينًا ويسارًا قبل أن يأتي صوت مضيفة الطيران برقته كي يطفؤوا هواتفهم المحمولة.

كان وجه سحر أسمر قمحيًا وتلك الحمرة الخمر على ثغرها باسم، تلك النقط السوداء الجميلة، على خدها وتحت فمها، أحس برغبة في التدخين وهو يرى صورها على هاتفه الذكيّ، استأذن مديره «مايك» كي يجرب سيجارة علّ جهاز الطوارئ لا يستشعره..ما أن أشعلها حتى قفز صوت المضيفة الرقيقة مرة أخرى بالإنجليزية وبكلّ لغات الأرض، يخرجُ»إبراهيم» من المرحاض منزعجًا من السيجارة التي لم تُحرِق شوقه لزوجته وهو يطير بلا جناحيها، تستقبله المضيفة الشقراء:

- عذرًا سيدي.

التقت الأعين، تسمّرت الملامح، هي «لين».. هو «إبراهيم».

«لين» الصبية الشقراء ذات العينين الزرقاء الواسعة، «لين» تلك التي كانت تحلم بالطائرات، التي تقاتل عليها نصف طلبة الجامعة، تلك التي فارقتني عن صديقي «شادي»، التي أهملت لأجلها كتبي ودفاتري، الحبّ كان هي، صنع لها، ليطير بنا ويمخر عباب المراهقة.

ها هي تصبح امرأة مُتمرسة..غاوية، وقفتها على الطائرة كعارضة أزياء رشيقة وزنها مهمل،تسمّر «إبراهيم» في مكانه ولاذ بضحكة عجب.

- منذ ثلاث عشرة سنة لم أرها (قال في نفسه)، آخر مرة..

آخر مرة كانت حين اقتحم هو ورفاقه بيت صديقهم «شادي» ليجدها بين أضلعه، حبيبته.

لم يعرف لتصرفاته اللحظية كيفيّة،هل يتجاهلها لكأنها الغياب المخادع الذي فضّل أحضان العدو عليه؟ أم يتنازل عن ذكرياته؟

امرأة بجمالها لا يمكنك إنكارها بهاته السهولة.

لكأن شيئًا لم يكن، تبادلا سلامًا بعتاب.المضيفة لم تتوان عن إغوائه بضحكات منفلتة من المراهقة، الحنين وهي والطائرة عليه، كان مأزقًا دون شكّ.

ترددتْ بعينيه أمنيات وتغلغل الحنق الطائر معه من الأرض، وهو المعلّق بالجو بين السحب مضطر إلى تصنع جملة مُجامِلة لتُخمد هذا الموقف المتصدع المنشق عن السماء كشهب حارقة.

سلما على بعضيهما وهي ترقبه في لهفة، لم يعبأ بها وحاول إغماض عينيه يلوك الذكريات من سنين قد مضت بدونها، لم يعر للموقف اهتمامًا كبيرًا ولا تفكيرًا أكثر من حجم اللقاء، بل اعتبره صدفة عادية في الحياة تحصل لأرقى العائلات.

في الفندق حيث حطوا الرحال، يستعجل مراجعة اجتماع الغد مع المستثمرين المصريين..بالشرفة،النيل منسدل كقطعة

قماش حريري بدانتيل كورنيش،الأضواء تسلم على بعضها البعض، متداخلة والقاهرة ليلاً قاهرة! لا نيام ولا أحياء.

إذا رأيت النيل تقول في نفسك كل المصريين ساهرون، وإن رأيت الفنادق تقول إن كل السياح حجوا لمصر زائرين، وإن سلكت معبرًا بسيارة الأجرة تجزم أن كل إنسييّ العالم هنا في فلك مصر.. سائقونْ.

الجو في القاهرة ساخن ليلاً وبه من الرطوبة ما يزيد «إبراهيم» عصبيةً،الناس كالنمل تجري إلى استقرار،مازالت الجدران ملوّنة بكلمات الثورة، «ارحلْ ارحلْ»، «الشعب يريد إسقاط النظام»،لا سيّما الوضع مازال بين أخد ورد،الانتخابات وشيكة ومغامرة الاستثمار أضحت كلعبة قمار تحفها المخاطر،لكنّه جلس محاولاً أن يتأمل في جو هاته المِصر المُصرّة على الثبات، رغم كيد الكائدين.

اختنق؛ والتهم سيجارته، لم يكن بوسعه فعل شيء آخر، حتى الهاتف تناوله على مضض، قلّبه في تراخٍ وملل وألقى به في السرير،كانت «لين» تأتي إلى رأسه ومن السرير بنبثُ جسدها وهو يبعدُه متبرّئًا من لعنتها.

كيف تعود إلى رأسه؟

ولمَ كلمها ببرودة قصوى؟

تلك الأشياء لا يعرف عنها شيئًا، فهو يتصرف دائمًا عكس

توقعات العامة والخاصة، إنها «لين» يا رجل، «لين» وماذا بعد؟

لم يلبث في مكانه إلا دقائق معدودة، وسط حرارة التهيّؤات انتشلته مكالمة من الفندق، هناك من يدعوه إلى العشاء وينتظره،في المطعم التابع للفندق.

إلى حدود الآن كلّ الأمور بدت على سجيّتها، وهو يكمل اندهاشه من الصدف كلما تذكر وجه «لين»، لا مجال لأن يخضع لرغباته. قال متيقنًا بضمير متقظ. فتح حقيبته المرتّبة بعناية سحر، اشتم بقايا العطر في القفل، تلك البدل التي اختارتها له..قاوم الحنين لسحر بحرفيّة شديدة، ذوقها هاته المرة يميل إلى الحزن والسواد، الياقات والقمصان.. ارتدى شيئًا خفيفًا وجينزًا وانتعل حذاءه الرياضي، ظنّ أن «كلود» ينوي مناقشته في صفقة الغد، لا سيما أن المشروع يحتاج إلى رأسين وتمَكُّنْ.

في المطعم، يدخل «إبراهيم» بعطره مكتسحًا الطاولات، يفتش عن رأس كلود، لا أحد بالمطعم سوى امرأة شقراء بفستان أسود تتوسط القاعة، رجع بالخطوات قبل أن يسأل النادل، وجدها تنادي عليه بصوتها المدلل:

– إبراهيم، هذه أنا «لين»!

يا لها من ورطة نساء! قالها مستهزئًا،قلبُه اهتزّ بنبضه

الراقص على وقع الماضي البعيد، اقترب منها وهو يدنو من ذكرياته، كانت السيدة أصالة تصدح «روحي وخداني.. أدوب وياك.. معاك إنت الحياة تتعاش.. ومن غيرك دي متسواش...».

يالها من مؤامرة!

ارتطم جسده في الكرسي مشدوهًا بأناقتها، عيناها المغمستان في الكحل كالتمر المغلف بالشوكولا، الفستان الكحلي وزرقة البؤبؤ، ابتسامة حمراء فاقعة وخدود أخاديد من عسل، لم يكن للكلام جدوى، تلقّته تحضنه بعينيها وتطوّقه بشغف، وضعت يديها تحت ذقنها تتأمله، لم تترك له مجالاً لأن يقول شيئًا:

– كنت أريد أن أشكرك على الفرصة التي حظيت بها في الطائرة، لا فرصة بعمري كتلك!

– صحيح، لم أكن أعرف أني قرصان الطائرة وربانها الحقيقي، لقد أربكتكِ وإرباكُ الموظف بالطائرة تصرف طائش دون أدنى شكّ،كيف حالكِ؟

– تضحك بدلال، بل قل لي كيف حالِك الآن! لا شيء يشبه اللحظات التي نتمناها فتصدق.

– على حدّ علمي أني رأيتك آخر مرة تُقبِّلين فيها «شادي»، بالمناسبة كيف حاله؟

– يقصفها بجدارة، تعتليها حمرة عدم رضا،مازلت مُصرًّا إذن على الحكاية!

– عجبًا! وتتكرين؟!

– سأختارُ لك ما ستأكله معي في هذا العشاء الذي أتمناه أن يوفي تعبيري عن تقديري لك مهما أخطأنا نحن، يظل الكبار أمثالك يُفحمون أمثالنا بكرمهم و.. سماحهم. ثم «السّلمون» هممم أنت تحب السمك؛ دعنا نغوص.

معجبًا بذكائها: أنتِ قاعدة شاذّة، فلطالما قالوا إن الشقراوات تافهات وغبيّات، تراكِ تتفوقين عليّ ولقد فاجئتني فعلاً، ضخّمي أناتي قليلاً!

– ترفع كأس الخمر إلى فوق..نخبك عزيزي إبراهيم!

– نخبكِ «لين»!

كانت الحكايات بينهما تتسرب من عمق اللاوعي، الخمرة لها لسان أعور يأتي على الأخضر واليابس، ضحكا كثيرًا وهما يستمتعان بذكريات لكأنها لا تعنيهما وحدهما أو فقط كانت وصلة من التاريخ..كبعض الوقت قد مرّ، وهما ثابتان لم تمسسهما من الأحداث سوى بعض الرتوش، يأكلان ويتذوقان طعم الحياة من جديد، استكشاف السّلمون المدخن وصلصة الثوم التي لا يستصيغها من يد سحر.. والثورة بالخارج والثورة بالداخل، والانتفاضات تتلوّن، والشعارات

والمطالب تتغير.

ليس يعرف ما قالاه، كم من كأس ارتشفاه! هل رقصا؟ لا يعرفُ جوابًا سوى أنه قد وُجد بين ليلة ودُجاها ممددًا بفرائصه العارية كبركان أُخمدَ لتوّه، في غرفته، كأنّ بجسده العاري قد مرّت امرأة على كتفيه، لاحظ تثاقلاً في رأسه وعطرًا ورسائل بشفة قد قضمت هذا الشغف، صمتٌ آخر يُضاف إلى سلسلة السكوت البائس، لا أحد بجانبه..مدّ يديه إلى الساعة..الرابعة صباحًا، نهض بصعوبة، متصلبًا إلى المرآة، نقْشُ قُبَلٍ بحُمرة.. وكل أعضاءه كانت تتنكّر له، تَفقَّدَ نفسه ثم وضع رأسه تحت الصنبور وفتح الماء على آخر تدفُّقِه، تَفقَّد وجهه مرّة ثانية يأمل في أن يكون حُلمًا مُتأخرًا، كاد أن يُجنّ، حتى خاتم زواجه ليس بإصبعه، «اللعنة!» قال متألمًا بضمير الغائب،مفزوعًا من غرابة الموقف. ما لبث أن خارت قواه، تمالك نفسه في آخر ثانية.

تحت رشاش الحمام، ترك الماء يغسل أدران قبح اللحظات التي لا يعلم عنها شيئًا، كان يرطم رأسه بين الفينة والأخرى بالحائط، اغتسلت شكوكه، اِلتفَّ بفوطة ثم حاول أن يبحث عن خاتم زواجه..لا أثر!

لم يتذكر شيئًا، تليفونه مُطفأ مُهمَلَة بطّاريته..تذكر أنه لم يشحنه، لم يخبر زوجته بموعد وصوله، لم يطمئن على ولده.. توقّفت الدنيا لبرهة عن الدوران في عتمة الأشياء السريعة المتلاحقة،

بدا لنفسه كعين صغيرة، عين بلا حاجب لا رمش،صغيرًا جدًّا، التلفاز هناك يكبره، حتى السرير كعملاق يبتسم في بلادة تامة، كعملاق وهو يتبرّأ من حماقة الفعل بحد ذاته.

فصل الحرف عن الذات

الفصل السادس

كل الرجال يهابون امرأة عارية، حتى وإن كان العُري بمثابة فكرة لذيذة تغري أبدانهم! إنهم يريدون القيام بتعريتها أو تعليمها بطرقهم الخاصة كيف يريدون لهذا العري.. أن يكون!

الرجال تستهويهم الفكرة سرًا.. سرًا دائمًا، وينتقدون عريها ذاك جهرًا، والقليلون من يملكون جرأة قول العكس.

أن تبادر امرأة بالإفصاح عن هواجس ماضيها بكتابات ليس جرأة وحسب، إنه يبدو عاديًا للوهلة الأولى، ولا ينفك يصبح مزعجًا، وجدًا، حين يتعلق الأمر بشخصنة الذات.. حين تصبح هي هي، هي التي تنتعل الحروف، وهي البطلة، وهي الذات الشاعرة، وهي المتكلمة والمخاطبة وبجميع تمويهات السرد وما يلزمه من بطولات وهمية خدمة لهذا البوح العميق المتماهي حدّ اللعنة.. وقد يحاكمها القرّاء ببعد أخلاقي متناسين أن الصدق هو أنبل خُلُق على الإطلاق.

الفكرة التي لا يعرفها إبراهيم، الفكرة التي تراود سحر.. تلك الفكرة ذاتها التي تصف الكتابة بعري داخلي لا يصل إلى

حد الإسفاف أو الابتذال، بل في هذا العري منطق البحث عن فساتين جديدة للروح.. تغيير أسمال معتقداتنا القديمة ومحاولة اغتسال من أدران القبح، ثم بعث الروح في الماضي البعيد والتصالح مع أبعد نقطة مؤلمة في الذات والقلب.

وبدل أن تُصادر الصرخات المكلومة وتستباح النصوص والكتابات، كم من امرأة قادها الجهل وآمنت بسحر التمائم وسخّرَتْ كيدها لتطيح برجلٍ غبيّ لم يفهم محبّتها على النحو الصحيح؟!

كم من امرأة لم تترك عرّافة لم تترك قبولاً إلا علّقته، ولا «تراجيم» للعشق والمحبة إلا وجربتها، ولا ذبائح إلا وذبحتها! وُدّت بذلك لو سرّعت من عجلة القدر ولو تحكمت بما لا يُتحكّم.

مشاعرنا.. حبهم.. أحلام النساء.

كبيرها.. صغيرها.. قطعًا، قد تتلخّصُ في رجل.

حين تكتب سحر فإن تمائم من الجمال قد يعلق في جيد قارئ مغلوب حسه على أمره.. قد يكون تراجيم رحيمة على أبواب قلب إبراهيم.. قد نملك سحرًا أسود ممددًا في جسد قلم نحيل.. كيف رأت سحر أن ما قد تملكه –رغم بساطته وقلة حيلته– قد ينثر العطر في الذاكرة، وقد لا يأتي أُكله، لكنها تظل محاولة فريدة لترجمة لغة القلب.. وقد تشكّل الكتابة

مشاريع أحلام قيد التحقق.

«امرأة لحلاحة غلبت امرأة سَحّارة» دليل شعبي آخر دامغ لطالما آمنت به، غنج النساء وعطفهن سحر لا يملكه إلا الراسخات.. في الحب.

هكذا أصبحت حياتها وأضحت، تأمل في فكرة الإبداع كمادة خام تُصاغ منها أسئلة متناسلة ومتداخلة تنتهي دائمًا بزوجها المعلق بتغيرات تفرضها الأجواء، القلم ساحر متمكن يستحوذ على الكاتب، وقد يتداخل فيه حتى التلبس وهل على الزوج أن يفهم كل هذا؟!

الأسرة بسيطة في تشكلها، معقدة في العلاقات التي تربط كل مكوناتها ببعض.. ومن تلك الروابط ما لا ينبغي على الزوجة أن تغفله.. الزوجة نفسها التي تسكب روحها لتعيش.. ولتعيش تكتب وليسعد الزوج عليها أن تعيش.. وهكذا كسيرة سرمدية لا تنتهي.

فصل ثورة الحب..عن ثورة الوطنْ

الفصل السابع

الصباحُ القلق يتوالى، والهاتف قد أخذ حيزًا من السرير إلى جانب سحر، تطمئنّ عليه كمريض يشكو من برودة في المفاصل العاطفية، ومن شلل في زر الاستقبال، كالصم والبكم أضحى معاقًا عن مهمة التواصل..»إبراهيم» لم يتصل، وهذا أمر خطير للغاية ويستدعي انتباه الصغير والكبير، وأصيص النعنع كذلك..الكل مَعْنِيٌّ بالنّازلة، وحيدة تغرس عينيها بسقف الغرفة..على الراديو فيروز تغني «زعلي طوّل أنا ويّاك» صوتها المذبوح يقتُلُ فيها كل المشاعر التي لم تثر عليه وهو يجر حقيبته، الدموع كذلك تكنس المخاوف، ثلاث ليالٍ لم تنمها، ثلاث ليالٍ كأنها نذر أو لعلها كفّارة لذنب اقترفته كالقلم.

الليلة بطعم آخر، يروّج في ذهنها بضع قصص والكثير من الخيال وكذبات نصدقها، تتذكر «ماجدة» حينما كانت تقول إن الكتابة هي أن نكذب بصدق. تمنّت أن تكون فعلاً قد تجرأت على تخيّل زوجها في أسوأ الأوضاع.. أن لا يُصاب فقط بمكروه،ينبض قلبها مطبطبًا عليها بالصبر والدعاء.

هاتـه المِصـر التـي تركـت فـي بالهـا أسـاطير، وجداريّـات.. أووف! تغمض عينيها، المصر التـي فتحـت لـي ذراع الشغف يومًا مـا.. رددت بتثاقل وهـي مستمرة فـي التحديـق بعينيـن منسكبتين بالإعياء، وتلك الأيـامُ ندوالهـا بيـن النـاس.

فتحـت لهـا مصـر مالـم يفتحـه المعـز لديـن الله للقاهـرة، وقـت كانـت تمتهـن التمريـض مهنـة ومحنـة،فرصـة لتحتضـن صـدر الدنيـا مـن أمهـا،اللحظـة مـا عـادت إلا ربـة بيـتٍ تنتظـر زوجهـا ابـن بطوطـة.

«هـي الدنيـا حظـوظ» كمـا ردد آنـذاك زملاؤهـا فـي العمـل، الطاقـم الطبـي المكـون مـن دكاتـرة وممرضـة لـم يغفـل أن يختـار منضبطـة تسـتحق السـفر للمشـاركة فـي المؤتمـر العالمـي لمكافحـة الأمـراض المتنقلـة جنسـيًّا، الدعـوة كانـت منطقيـة بنـاء علـى عطـاء سـحر وإنسـانيتها اللامحـدودة، «مـي يامنـة»أوصـت سـحر أن تـزور المرسـي أبـو العبـاس ومسـجد السـيدة زينـب، حلّفتهـا بـأن تدعـو لهـا هنـاك..رغـم حـرص سـحر علـى الوعـظ والإرشـاد أن الله موجـود لا حاجـة لمعبـود بوسـيط، فـإن كبـار السـن هكـذا علـى سـليقتهم نتقبلهـم، أمـا «ماجـدة» فقـد أوصتهـا بلبـاس الراقصـات، تلـك اللواتـي تجلـس النسـاء أمامهـنّ لتتعلـم الرقـص علـى أصولـه، كانـت «ماجـدة» تحـب الرقـص كثيـرًا وبعصـا المكنسـة كانتـا تقلّـدان الصعايـدة فـي تمايلهـم ورقصهـم، بعفويـة كبيـرة، كذلـك قالـت إنهـا لا ينقصهـا لاكتمـال تعلـم فنـون

الرقص الشعبي غير البدلة.

كل شيء بدا لسحر كالسِّحر ،وصعود الطائرة كان إنجازًا بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى..تلك الدهاليز الخاصة التي تتميز بها المطارات، ولو أنك درست عمرك كلّه، تحفظ الأرقام جيدًا وتُجيد قراءة الجمل،فالاختبار الحقيقي لدراستك ليس نيل شهادة أو حتى وظيفة، بل إن كل التقييم هو عند دخولك المطار، كلّ الناس تسأل عن مكان طائرتها حتى وإن مُلئ عن أكمله بإشارات للاستعلام، المسافرون تراهم كمن يتوهون داخل متاهة أنيقة، سحر كانت كذلك، لولا إشراف الدكتور حسام عليهم.

داخل هذا الاختراع العملاق كانت تأمل أن تنسى قصة «خالد»، تستكشف أغوار معاني السماء المنبسطة العظيمة، في النافذة كانت تغرس رأسها تنظر إلى جناح الطائرة، إلى أحلامها المعلقة في السماء، والأمنيات السابحة في ملكوت الإله، أي سِحرٍ هذا؟!

هناك النجوم أقرب والقمر أهدى وأجمل، الطائر في السماء ليس كالمُشاهد من أسفل الدرك..دوّنت كلّ مشاعرها جانبًا وتصفحّت مذكرتها وأرقام أصدقائها المصريين الفيسبوكيين الذين أوصوها أن تطرق أرقام هواتفهم فور وصولها..

ونوَّرَتْ مِصْر.

وهبطت إليها سَالمة،من الدرج بالطائرة تشتم عبيرًا لا يُشبه المغرب، الجو مليء بالغُبار وحرٌّ طفيف به من سلام النيل الكثير، الناس البشوشة وابتسامات تعلو الأعين، لابتسامة المصريّ قلبٌ خاص ينبض من الشفتين،»كنتُ كالمُعتقل حين يدخل مدينة ملاهي»، هكذا أحست سحر نفسها في مصر، الأضواء تبتسم، الضوضاء تبتسم، السهر يبتسم.. كلّ شيء في مصر يوحي بأنك ستعيش أسطورة ما، قصّةً ما.

ودون أن تدري سحر شيئًا عن زوجها الذي سطّر موعدًا آخر مع الحماقة،كانت تنتظره في اتصال وفي يديها هاتفها النقال وحزمة الذكريات المصريّة، وفي انتظار مكالمة «إبراهيم» استقلت مقطورة بطيئة أخرى، حيث تلك الذكريات البعيدة، فالسفر في طائرة يختلف عن قطار، لكنه يظل واحدًا..كسفر السمراء والبيضاء والافتراضي، وكلّ تلك الأحداث المرويّة في قصصها القصيرة حدّ التعرّي.

وبزيّ المُتَخَفّي، الساعة الرابعة صباحًا والنصف، محاوِلة تذكر باقي الأحداث التي عاشتها في مصر، لم يعرف «إبراهيم» عن سفرها إليها إلا حين عادا متزوجين معًا من المغرب، وقت قالت له إن السفر مع الحبيب على جناح طائرة هو كالخرافة. «إبراهيم» ليس من عادته أن يستفهم عن التفاصيل تركها تحكي له عما عرفته من بلاد المحروسة.

في الحقيقة.. لم يكن من اللازم أن تحكي له عن كل ذاك الألم، ولحظات الفرح تستحق أن لا تُلوّث، حين سافرت إلى مصر كانت تحملُ معها شغفًا والصدف حليفتُها، فبدا من غير اللائق أن تحكي لزوجها ما تُنكره ذاكرتُها من أحداث، كأنها لو ودّت هُنا أن ترجع فقط لكي تتمكن من محو «أحمد» ومن محو طيفه، تدفّقت كلّ الصور تتلاحق في المخيلة، وصولها للفندق، اكتشافها الطفولي للمكان، للأكلات الشعبية، لفضول اللغة، لقراءة الملامح العابرة. ما لم تحكه لـ «إبراهيم»:

قضت الليل -ليلتها الأولى في مصر- كلّه تنتظر أن يأزف الصباح، تشتري كارت شحن وتُبلغ كل أصدقائها الفيسبوكيين بقدومها سالمة غانمة لـ»أم الدنيا»،في غرفتها الأنيقة عكفت على أن تصور كل ركن فيها لتؤرخ وجودها في بلد عشقته بين أفلام أبيضه وأسوده، ثم هي لا تنسى أبدًا أنها كانت تقضي وقتها بلا هوادة معيّة أمها، هذا فيلم رومانسي وذاك كوميدي، تلك الأكلات التي تثير فيك رغبة تذوقها من يد صعيدية بالسمنة: الكشري والعيش والملح. تحولتْ حياتها بلمسة من صدفة إلى حقيقة، حتى حين يشيد والدها بقيم مصر الدينية الكبيرة، فوالد سحر من أشد معجبي شيوخها الأبرار الذين يعدونك بمجرد متابعة قناتهم أنك ذاهب للفردوس لا محالة، قنوات تأخذك إلى الجنة..يا سبحان الله!

محلّ جدل دائم وقائم بين الأب وابنته، تلك اللحى والمواعظ المتدفقة من شاشة التلفاز تستفزهما معًا، التطور الديني المصري نتاجُ لخواء ثقافي جامح، تقول سحر لا عيب في أن نوطد علاقتنا مع الله بتذكير ليّن يخفق له القلب ويلطف، إنما العيب كله في تجارة حين يركب الشيخ سياراته الليموزينية ويذهب الآخر لإجراء عملية تجميلية لأنفه، وتجد الشيخ الفلاني وقد سرق كتابًا كله دون أن يكلف نفسه عناء ذكر مصدر، ثم يأتون ليأخدوا بيديك إلى الجنة، فهذا هراء وبهتان على الدين. الأب لا يصدق ويقول إن الإشاعات تطال كل المتّقين.

هنا في مصر، حيث تتعدد الطوائف كذلك بتداخلها وتنافرها حينًا،وائتلافها حينًا آخر..هنا المصري حيث النكتة تُخفف من مرارة العيش.

في صباحها الأول وقبل المؤتمر خرجت تتأمل ملكوت البلد والشوارع التي تضيق بسكانها كأنها تلفظهم، المصري الكادح يجري..يجري تمامًا كمشهد متكرر في كل الأفلام، ذاك المغلوب على أمره ذو الكرش المستدير المطوي، الصلعة التي تكتسح جل رأسه مهرولاً من أجل أن تمسك يده بالميكروباص..الجو مُتعرّق والسيارات الفارة من هنا.. المارة عبر الكباري تلك الطرق الملتوية المتداخلة، يا ستار يا عليم..يا رزاق يا كريم، الدكاكين التي تشطف بالماء

والابتسامة.. صباحٌ بطعم الشاي.

النساء السمراوات هنا أجمل من لون الشاي، العيون الكليوباترية والدم الخفيف يُسكرْ.

أدخلت بطاقة الهاتف، وصارت تبحث عن رقم أهلها تُطمئنهم بوصولها -ما لم يفعله «إبراهيم». في سرها انتبهت للمقارنة- ثم أكملت استدراج الذكريات.بعدها قرّرت أن ترى «رضوى» و»أحمد» صديقيها على الفيسبوك، أرسلت رسالتين تخبرهما بقدومها، عن مكانها..فندق رمسيس بالجيزة - الهرم.

ما هي إلا ساعة بالمؤتمر ويتصل «أحمد»، يتعذّر عليها الجواب فتُطفئ هاتفها معتذرة من زملائها عن الإزعاج الذي سببه رنته العجيبة. تتذكر فتلوذ منها ابتسامة سخرية، آه هاتفي الضخم! لم تسبدله رغم تطور التكنولوجيا،إنها من النوع الذي لا يفرّط في أشيائه فيكون من الصعب جدًا عليها أن تُغيره باسم التطور.. وباسم التطور كذلك شبابنا غارق في وحل الأمراض..باسم الغرائز، تصورت سحر عالمًا نظيفًا من تلك الأوبئة الانتهازية، انتهازية كونها تستغل صاحبها للفتك به في لحظات نشوته وزهوه بنفسه، فكرت لو كان بإمكان شبابنا أن ينتصر على لذاته حتى لا يغطس هاويًا، ليجد نفسه في قعر التهلكة محترفًا.

ريثما انتهى العرض، وجدت رسائل من صديقيها، ما إن فتحت الهاتف لتقرأ حتى خرج الاتصال مهرولاً من مشهد اعتقال إجباري، إنه «أحمد» على ما يبدو بصوته الطفولي:

– شحرورة.. اشتقتك.نوّرتِ مصر !

– أهلاً أحمد، كيف حالك؟ والله مصر منارة بأهلها وسكانها.

– دعكِ من أدبيات المغاربة، نحن أناس بسطاء على باب الله..نبسطها فتُفرج بلا تكلفة ولا تصنع، وبلا لف ودوران. أدعوك للغداء،رتبي أمورك حتى أصل.

تقاطعه مرتبكة: يا أحمد، أنا ضمن المؤتمر العالمي لمكافحة الأمراض المنتقلة جنسيًا.

يقاطعها بسخرية:أستغفر الله العظيم!

ثم يلوذ بضحكة. تكمل حديثها غير آبهة له: لا يمكنني الخروج عن البرنامج؛ أنا مقيدّة بوقت.

– متى تنتهين يا سحر هانمْ؟

– الساعة الرابعة مساء.

– جيد..جيد جدًا، هو معاد الغداء في مصر على أي حال، توقيت جميل..المهم (بصوت أكثر دفئًا وهمسًا): مصر نورتها زيارتك يا سحر.

*****

لم تكن تعلم سحر أن المصريين كلهم ذوو خبرة وحنكة في علم الكلام؛ حباهم الله دون غيرهم من المشارقة بالعواطف الجيّاشة، واجتباهم دون الخلق المرهف برهافة تبدو زائدة أحيانًا وزائلة بلا معانٍ، إذ أن المُستمع يُخيل إليه أن المصريين كلهم يعيشون على وقع ذات الزمن الجميل، شادية وعبد الحليم، والحب في مصر يُخيّل للزائر لكأنه مهدهُ..وُلد على يد المعز..هي كالمشدوهة في ما قرأته في تلك الليالي التي قد خلت، عن كل ما يدور ويروّج عن المعز لدين الله. عكس المغاربة الشعب الأكثر بخلاً في إظهار مشاعره،الشعب البارد كنظرة شريد للعيد. المصريون بالفطرة،أو دعنا نقول إن كُتب التاريخ عن المعز لدين الله كانت إلى حدّ كبير سبب ذاك التيم القويّ لذاك الحاكم الفريد، فيُقال إنه لم يُكن معزًا لدين الله ولمصر، بل ومُعطيًا مكانةً كبيرة للنساء في حقبته وتحت ولايته..بل ولعلّ سبب وَلَه النساء بالحاكم العثماني وحريمه ليس إلا عطشًا ورغبة ملحّة في معرفة أسرار القصور المخفية،فتجد من الإجحاف حجب ظاهرة كالمعزّ، فتجد حديثه وأسراره مُدّعاة دهشة، فقد سبق وحكت سحر لـ«ماجدة» ذات ليلة عن بعض المتفرقات التي قرأتها في كتب وموسوعات موسّعة، لكأن حدسها سبقها واستبق ذاك العشق الخفي للاسم والمسمى..للدال والمدلول، حتى كُتِب لها زيارة «المحروسة».

في عهد المعز لدين الله، كانت تحكي سحر بدفء واهتمام

بالغين، أن النساء تبوّأت مكانات مهمة في المجتمع، فكانت أولى النساء التي حظيت بمكانة عالية السيدة «تغريد» زوجة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وكانت تلقب بـ»أم الأمراء»، وكانت امرأة أعمال ذات عقلية تجارية فذّة لها نشاط تجاري كبير، تبعث بالجواري والعبيد من المغرب ويتم بيعهم في مصر على يد وكيلها..هنا رابط آخر يجمع البلدين بقوّة.

ثم لم يكن لتغريد أي دور سياسي لكن الخليفة كان يطلب مشورتها في بعض أمور الدولة، وقد شيدت الكثير من المنشآت المهمة مثل قصر القرافة الذي وصفه المقريزي بأنه قصر فخم يسر الناظرين.

قد حازت المرأة الكثير من الألقاب التي تدل على التقدير، ففي العصر الفاطمي أطلقوا على زوجات السلاطين لقب «الجهة»، وكانت أحيانًا تقرن بـ»الجهة العالية» أو «المعظمة» ويسبقها كلمة «مولاتنا»، كما أطلقت ألقاب كثيرة على أميرات قصر الخلافة مثل «السيدة»، «الشريفة»، «الطاهرة»، «الجليلة»، «المحروسة»، وفي العصر المملوكي حظيت على عدة ألقاب أخرى، فأطلقوا على نساء السلاطين «بركة الملوك»، «ذات الحجاب المنيع»، «سليلة الملوك والسلاطين»، «الشريفة العفيفة»، «غصن الإسلام»، «فرع الشجرة الزكية»، «الستر الرفيع»، يسبقها لقب «خاتون» أي السيدة الشريفة بالفارسية، و «خوند» أي سيدة بالتركية.

من هنا كان لسحر أسبابها الخاصة الكافية لتسقط في شراك غرام البلد، وفي آخر حديث كان لها على الفيسبوك مع «أحمد» لم تتوان قط على أن تصارحه برغبتها الشديدة في لقائه، وظل حماس سحر يزداد كلما اقترب وقت السفر، تلك الصدفة التي أغدقتها بحسن الأمنيات وإمكانية تحقيقها على أرض الواقع، فلطالما آمنت أن الواقع ما هو إلا امتداد بديهي لعوالم الافتراض التي عاشتها بين جدرانه، مُدوّنة مُختفية بأسماء مستعارة، بلا سنّ وبلا صورة..في أول الأمر كان التخفّي وارتداء قناع المجهول مغريًا وفاتنًا، سُرعان ما خفّ مع مرور الوقت وأضحى الكشف عن الهويات أمرًا عاديًا مادام الشخص لا يملك عارًا ليخفيه.

سحر كانت تسبح في الفيسبوك لتنسى خيبات «خالد»، خصوصًا أنها لم تهضم كثيرًا قصة مرضه بالسرطان، وإن كان ملامح نزيفه يومَ الاختناق يُحيلها إلى خلل ما في أنسجة الدماغ، تلك الاهتزازات التي كانت تعتريه وذاك التشويش على ذاكرته، ولن تنسى كذلك أن الدكتور حسنات قد نصحه فور عودته إلى بلاده في عمل أشعة لشبكة الدماغ.. كلّ ذلك ولا يهمّ! تلك العبارة التي كررتها في قصتها المكتوبة بحبر البارحة، ما يهمّ أنها قد وجدته بعد كذبته سليمًا معافى على الأقل في صفحته الفيسبوكية، وحين غرّها الحبّ وضغطت زرّ بعث طلب صداقة الذي رجع من جداره مُتأسفًا أنه لا يقبل سحرًا من جديد. ألم يكونا صديقين في الواقع؟ وكيف

له أن يرمي بها سريعًا حيث كذبة بحجم الموت؟ وهل صدقَ أم صدّقتهُ أم أنه صادقْ؟ ولمَ صوره على الفيسبوك بابتسامته الواثقة تلك؟ وهل هو قوي للدرجة التي قد يصنع له فقاعة «كل شيء على ما يرام» فقط كي لا تطاله أعينها المُشفقة؟

أسئلة كانت تعلقها على صفحتها كثيرًا، آملةً أن يقرأها فيَلِين..أو ربما تمنّت فقط أن يملُكها بجواب واحد مقنع.. لم يفعل شيئًا سوى أنه اختار الصمت البشع، ذلكأننا نختار صمتًا إلا حين نفقد كلّ وسائل الكلام.

لكن «أحمد» كان متابعًا لهرطقاتها الكثيرة ولتلك الفلتات الهاربة من القانون، فكان يحتويها ببطء ويعِدّها لنفسه وقلبه بخطوات لبقة وواثقة، كأن يسأل عنها دائمًا،

بتلك السهولة الشديدة. كم تحتاج النساء إلى اهتمام بسيط خالٍ من التكلّف! كأنه عثر على جرحها أخيرًا فأتقن اختيار المرهم، فلم تكن هي صعبة بقدر مفرداتها وقصائدها المنثورة المبتورة من أحشاء قلبها المُثخن بمعلّقات الرثاء وبقايا الأسئلة، ولم يكن هو غافلاً عن أسرار البنات..هو فقط كأي صيّاد مُحترف كان يصيد فريسته المكلومة من كمين حبّ قديم،ربما لم يكن حبًا كما كررت العبارة على مسامعه دائمًا..لكأنها كانت تتبرأ من سذاجتها أمام رجل جديد..

كيف لا يكون صيّادًا لطريدة مبحوث عنها عالميًا، وهو

المهندس العبقري في التنقيب عن الذهب الأسود؟! هو الذي تقفز أبحاثه بين أشهر الباحثين وأكبرهم سنًا ليتفوق على ذكائهم في عمق الفيافي وصحارى مصر، يُفتش عن بئر النفط كواحات النخيل الباسقات في عمق الرّمال، درس بأمريكا هندسة النفط وتميّز عن زملائه بحدة ذكائه وفطنته الشديدتين، فكان البحث بين الخرائط الطبوغرافية هوايته، ما أهّله إلى أن يكون أصغر مهندس بترول في الشركة الأمريكية بمصر ،بل ويكادُ يترأس كبار المهندسين هناك من ذوي الخبرة والسن، فقط لأنه كان حاذقًا مُجدًّا وعمليًّا أكثر من أي مهندس آخر.

لم يكن الدافع إلى التميز محض صدفة،»أحمد« الذي فقد والديه معًا وفي سن مبكرة كذلك، في حادثة سير في الطريق الزراعي الرابط بين الشرقية والقاهرة..لن ينسى الحدث أبدًا، ولن يكون في عزّ مراهقته إلا في أمسّ الحاجة إلى صدر حنون.. عاش يتيمًا سوى من كتب الرياضيات، فكان عزاؤه تلك الأرقام الحانية المتشابكة والمجهولة الغامضة، وهو ابن الباشا الدكتور وابن السيدة «سميّة» الطبيبة الخلوقة التي أحبها الصغير والكبير، لقلبها البهيّ الذي يبدو جليًا في وجهها السموح. قبّح الله اليُتمْ! كم كانت خيبة الآمال قوية حين ورث منهما تلك الفدادين الممتدة في «مشتول»وحيدًا! فتطاولت أيادي أعمامه الذين كانوا في حياة والديه مستغلين للأراضي بما يزرعونه على أنّها في ملك لوالد «أحمد»..فما كان لمهندس

مثقف يعرف ربه جيدًا أن يأخذ ثمن استغلالهم بمقابل، بل كان المقابل هو عرفان اهتمامهم بالأرض بدل إهمالها أو تفويتها أو حتى بيعها..فالأرض في مصر مسألة مبدأ، ثمّ «أحمد» لن يعيش في جلباب أبيه، ولم يكن له أن يتنازل بسهولة عن أراضي والده التي كانت تصل رحمه بينه وبين أعمامه.

لكنّ أعمامه جشعون، فور موت أهله،كلٌّ تلوّى على قطعة أرض كان بحياة مالكها يستفيد منها، فإذا به يتنكّر ويدّعي تملكها بالغصب وبالسيف، إنه الموت كاشف تلك الأقنعة، للموت وُرثة ينتظرون لحظة غفلة بين البائع والشاري (كالمثل المغربي).. في ذاك الوقت «أحمد» كان مخطوفًا من ذاك الموت الذي انتزع حاضنيه بقسوة الرّعد، خطف بصر زائغ،فإذا الحياة تنقلب عكسًا على عقبها، هو الوحيد الذي لم يذرف عليهما دمعةً فتخاله يستقِّلُّ بكاءه على راحلين بحجم الحياة ولعبة الموت..أين هو من تلك اللعبة؟ لا شيء.. لم يترك لنفسه متنفسًا لأن يرثيهم إلا عبر كُتبه، فاعتبر السفر ضرورة مُلحّة، فلا أهل سيعون غيابه ولا شيء يستحق المكوث، لا إخوة ولا عائلة ولا هو في سن تسمح له بأن يكوّن أسرة، لا حنين إلا رب العالمين.

حين يتساوى الغياب والحضور عندها لا نفرّق الوجود من العدم، فتصبح الحياة كلها مسألة وقت، لحظاتٍ تمرّ..تجرّنا

بخنوع الأشرعة لعظمة الرياح.

في الغربة وجد ضالّته، استخفّ بلعبة الحياة واعتبرها رحلة جوفاء، مراهنا على مبدأ الخسارة في أي لحظة عدا دراسته، لم يجد كذلك لنفسه وقتًا للحب..بل كان الحب في كنف والديه، وغير ذلك أشياء تافهة وأماني حقيرة..غسل دماغه هناك بشكل مدهش؛ تستطيع واشنطن بعماراتها المتناسقة المصفوفة أن تُقزّمَ من قناعاتك السابقة وتبردها كمنجرة تُشذّب قلمًا رصاصًا.

حالما عاد اصطفّت أحلامه القديمة على السجادة الحمراء، فالذاكرة والأمنيات من الأشياء الفاخرة، تظلّ على حالها، حتى وإن غمرها النسيان، والوقت وإن مرّ عليهما تزحزحتْ.. ما صَدِئتْ.. وهو كذلك على ما هو عليه، رجع إلى شقتهم كسجين عاد من زنزانته إلى مخفر الشرطة، لا هروب، وكل ادّعاءات النسيان مرجوعة إليها.

لكم كان الأمر صعبًا ومُحبطًا ومُتوغّلاً في الوجع، تدفق الإحباط إلى حياته من جديد، والوحدة كائن خبيث، فبالرغم من انشغالاته في عمله وسفرياته لكن الاكتئاب كان وشيكًا أن يفتك به، لم يجد بدًّا من استشارة نفسية.. قال له الدكتور مصطفى مجيبًا إياه بشُحّ واقتضاب:

– ما أنتَ عليه يحيلنا إلى اكتئاب.

كان «أحمد» ساخرًا كبيرًا مرحًا رغم سمات الحزن في ملامحه الطفولية، وجهه المستدير كبرتقالة وأنفه الصغير يهزّه بسبابته كلما أراد أن يحيط الجو بدعابة.. أجابه بعد سماعه لجواب الدكتور :
- لا والنبي! يعني لسه فيه أمل يا دكتور ؟!

انتهت تلك الجلسة بنصيحة الدكتور أن يبحث له عن حيوان أليف يربيه،أو أن يهتم بمشتل أو طائر أو أي شيء يحبه..بل نصحه بالانفتاح على محيطه وإنشاء صداقات جديدة، افتراضية أو واقعية لا يهم..حالته جيدة! والحل كان بيد «أحمد» لا بيد غيره.

وفعلاً، اقتنى «أحمد» قطًّا شيرازيًا فريد النوع..متميّز الفراء، فهو يحرص كل الحرص على مقتنياته التي من شروطها أن لا تشبه شيئًا آخر، أن يمتلك هو النسخة الوحيدة والجميلة ودائمًا ما يكون في اعتقاده أن الآخرين هم من يكررون مثيلات مقتنياته تيمّنًا بذوقه الرفيع.

حسنًا..فـ«أحمد» من باب الفيسبوك الكبير سلك الشاطئ ليجده سابحًا في عمق المحيط الهادئ، وتقريبا في سواحل طنجة رستْ تنقيباته الفيسبوكية التي تشبه إلى حد ما عمله البترولي..عند سحر شباكه الراكدة نصبت فخاخها وحطت، لتعلق زعانف الوحدة به، كي يتمسك الغريق..بالغريق.

تلك المعرفة التي دامت لشهور بين أسلاك الحاسوب، كان

مُصرًّا أكثر من غيره على تتبع كلماتها ومعانيها، يشجعها على الكتابة..نعمْ كان يفعلْ..وهي لن تنسى أنها وعدته أن لا تترك القلم لأجل تلك الأحاسيس الجميلة التي كانت بينهما.

فسحر كانت أمًّا قبل أن تكون حبيبة. كان يتعقب خطواتها، يستمتع بالتنصُّتِ على همسها وهي تغط في نوم، ويجد نفسه في محلّها حين تحاول لعب دور المستشير النفسي، وكم كان يذوب لالتفاتاتها الإنسانية حين يدّعي الصداع أو الحمى! كانت صديقة حميمة، فيبعث لها صور قمصان حائر أيًا منهما يشتري،ورغم أنه يكون قراره محسومًا لكنه يدع لها شرف الاختيار..وضعها في جوف قلبه وانطلقا..حتى في تربية «كيكو» قطه غريب الأطوار..كان يستشيرها فيقضيان ساعات يتوغّلان في نفسية الحيوانات وسلوكياتها.

كان شعورًا لا يشبهه شعور، الهاتف ذاك الذي تضعه بجانبها الآن ممدد في قبر النسيان، كان فيما مضى لا يهدأ ولا يكلّ، حتى «ماجدة» صارت هي الأخرى تقتسم اتصاله وحديثه، إنه كالطفل المؤدب الذي لا يتخطى حدوده،فيملأ حياتها ضحكات من نوع آخر.

وتقاسما الذكريات، تبادلاها بود، هي مدت له الحب الأول «خالد»، والخذلان في علاقة أولى، وهو وكّل لها أسراره الصغيرة والكبيرة.. ولم يعرفا نفسيهما قط إلا في صور، وقصص فضاءات النت غالبًا ما كانت تبدأ بين الأسلاك

لتنتهي داخل ذاك الصندوق، أو تبدأ لتنتهي في قفص زوجي كأي علاقة كُتب لها النجاح..

صندوق العجائب كما كانت تقول «مي يامنة» عندما كانت تراها معقوفة الظهر ولوحة المفاتيح تعزف لحن الرّقن كنبضات قلب يحتضر.

وتسرّبت المشاعر من بين أصابع الوقت، وخرّت عواطفه يومًا ما ليعترف لها أنه يجد فيها أشياء أخرى غير الصديقة والأخت..أشياء كان ينكرها دائمًا ويُبدي امتعاضه منها،»أحمد» لا صديق له إلا جيبه وكيكو.

وها السحر يحل في مصر ضيفًا، لم تسعه سماء واحدة، لكأنه حلّق بعيدًا فتاةَ من نفسه وسط الفرح،المرأة كائن يدغدغ الأحزان لا مناص منها وإن كابر الرّجال..المغربية تلك كانت روعةً في أدبها ورقيها، وهو يعرف خبايا النساء من معاشرتهن في بيت واحد أثناء دراسته بواشنطن.

حين أمسك بالهاتف ليكلمها استعدّ أمام المرآة وقدّم «بروفة» لصوته يروّضه كي لا يكشف كمّ تلك السعادة.

لقد نسي اتصالاته التي كانت تفوق الألف دولار في الشهر. لو كان هذا الصوت يسافر في طائرة لما كلّفه كل ذلك الأمر، ولعل أغلى تكلفة تسعيرة هاتف هي التي تفرضها المملكة المغربية على شقيقتها المصرية، فيبدو من

العيب جدًا رفع سقف التكلفة كي يكف الناس عن الحب.

ويبدو جليًّا كيف أنها لن تعرف كم استغرق تفكيره من الوقت، عسى أن يهديه لبدلة ما.. يُنقّب في المتاجر عما سيعجب سحر..صورتنا الأولى في أول موعد هي التي تُحنط الزمن وتجعل الارتسامات الأولية علينا جميلة ومقنعة.. فتراه يتقمّص أن يكونَ عاديًا بسلوك غير عادي البتة.

أشعل سيجارته وصوّبَ عينيه في عينه، وبصوت الواثق:

– سأقابلها اليوم، عرفتها في ٢١/٠٧ وسألتقيها في الحادي عشر من السنة الجديدة.. مرّ كثير من الوقت، كي أثق فيها بما يكفي، لأحبها ولأتقبل هذا المفرد الدخيل عليّ.

قد لا أعجبها؛ شكلي ليس مغريًا..قد تنفر مني وقد تفرّ من بين يديّ.

وماذا عن «شيماء»؟ في ستينألف داهية!

هكذا ظل لفترة من الزمن يكلم نفسه، يأمل أن يأتيه الجواب من صورته المنعكسة ببلادة على المرآة، وكيكو يرقبه في عجب، يركض القط حتى مطلع السرير، يخربش البدلة الملقاة على سريره، يجرّ السروال، وحين لا يستجيب له يتركه في لا مبالاة وهكذا في صفا ومروة، يهرول بتلقائية و»أحمد» يعدّ ركضه ويَعِدُ نفسه أن كل شيء سيكون بخير.

في مقهى يطل على زرقة النيل على باخرة ضربا الموعد، قد فكر أن يأتيها بسيارته ليأخذها معززة مكرّمة من الفندق، لكنها رفضتْ..خافتْ أن تهتز صورتها أمام زملائها وهم كلهم رجال، فيظنون عنها ظنّ السوء.

ما أدراها؟! فضّلت أن تأخذ تاكسيًا، وهي لا تعرف أن سيارة الأجرة في مصر تختلف عن كل سيارات الأجرة في العالم، هناك حيث السائق هو من يحدد وجهتَكَ لا أنتْ!

واستنتجت كذلك أنها بسهولة ستتعرض للنصب وهي مغربية اللكنة، المصرية في لسان سحر تتلعثم فتظهر أنها غريبة وعبيطة، ولقد دفعت من فندقها القريب جدًا من كورنيش النيل ما يضاعف سفرها من طنجة إلى الدار البيضاء عبر القطار من الدرجة الأولى.

وصلتْ، بجلبابها المغربي الأنيق، المتدرج بأخضر لون الفرزدق..شعرها تركته متفرّدًا وعلى وجهها وضعت القليل بلا تكلّف..بدت كشجرة رمّان على جبل أطلسي.

طويلة تتمايل في خجلها، تدور برأسها لتلتقي بالمجهول،ضربات القلب في تسارع؛ كيف سيبدو لها رجل الفيسبوك الأزرق، ذلك الذي يرتدي نظرات أنيقة برأس يبرق، لا شعرة تنزلق في سحنته، تلك اللحية السميكة المشذبة فلا يظهر من وجنتيه إلا بساط رمادي أنيق، كيف هو رجل

الأبيض والاسود؟

اختنقتْ كلّ الارتبكات وأجّلَتْـها..نعم هو ذاك بقميصه الأزرق المائل للحزن العتم، وزنـه الزائد لا يعيبـه، يتقطر جبينـه بالعرق، وجدتـه في وضعية مسح رأسه بمنديل ورقـي، ما أن سقطت عيناه في عينيها ارتبك في يديه المنديل وأسقطه،كأنه كان في وضعية غير لائقة،تنكّر ليديه فابتسم وانكمشت ملامحه ومالت إلى عبوس، أجهرت الرغبة في دمه فمسكته سحر كأنها تمسك أخًا مسافرًا لتوّه عاد من المهمة العسكرية..الجوّ يترقب بإمعان تلك الأشياء الجديدة التي في العادة لا نقوم بها في مصر، كأن نمسك بشاب بالكاد نتعرف عليه ندفنه في أحضاننا النحيفة.

كانت سابقة وشيئًا عجبًا، فمشهد احتضان غريبة لغريب جعل عائلة بأكملها تنتفض من طاولة عشائها، تنظر إليها بغرابة شديدة، من الواضح جدًا سماع صوت الأب المزمجر مستغفرًا ربه عن الإثم العظيم الذي رآه، سحر لم تعر للأمر أي أهمية، رغم حرج «أحمد» الظاهر الذي قد تسبب في تصبب عرقه من جديد، كانت تسلم عليه كما دأبت أن تفعل لأصدقائها في المغرب، بكل أريحية، لجهلها بقواعد السفر.. لم تتعلم قط أن بلاد العرب ليست واحدة.

لم يكن مألوفًا لـ «أحمد» أن يسلم على بنت بذاك الشكل الفظ ولو بأمريكا، ولم يتوقع أن تكون أكثر تحررًا -كما

بدا له- من بنات واشنطن، فهو لم يعتد كذلك على النساء بمعنى أصح، وكلما جاءت متدربة لتتدرب على يديه اخترع ألف حجة وسبب كي يزيحها عن وجهه، الآن وقد حشرت سحر أضلعها فيه، تصوّر كم راق لها فعل ذلك لتعرف سمكه وحجم بدانته، أو ربما لتسخر منه لاحقًا..دارت أفكار ووساوس شتى برأسه، وجعلته ملهيًا عنها، وهي المتحمسة من عينيها يبرق الكلام، كان يضحك باستعلاء وكأنه ما عاد هو للحظة، ما عاد رجل الفيسبوك الذي يهتم، أمسك سيجارة فحالت بين أسئلتها وصمته..بابتسامة أعمى قالت:

- لم تخبرني في يومٍ أنك تدخن!

- بنظرة أصم أجابها وهو يرتشفها منزعجًا..ها أنتِ تعلمين الآنْ! المفاجآت وحدها تجعلك منتظرًا مترقّبًا جيدًا،ستفاجئين بالكثير، أعدكْ.

- تضحك كبلهاء..آه يا أحمد! لكم تعرف أن زيارتي لمصر وحدها مفاجأة، مفاجأة العمر،لعمري ظننت أني سأركب طائرة وسأسافر.

- السفر هو التجديد، لقد سافرت لأمريكا في سن صغيرة، خولني أن أرى الدنيا بطريقة مغايرة..لكني الآن لا أستطيع ترك مصر أو أن أسافر لأي سبب آخر...

تقاطعه: لكنك قد وعدتني أن تزورني في المغرب وأن

نلتقي! لمَ الآن أراك وقد غيرتَ رأيك عن السفر؟

- أنا كنت سآتي حالما أراكِ وقد أحببتني.

- نحن لا نحب بضغط زر يا أحمد، نحن أصدقاء، أصدقاء جدًا، و...

يقاطعها: حسنًا، أعرف أنك ستحبين هاته الأكلة جدًا، شعرت بالجوع.

تستفزها طريقة حديثه التي تغيّرت وأصبح لها نبرة خاصة أخرى، بل اعتلى وجهها الأسمر الخفيف حنق وعدم ارتياح، لم يكن هذا الـ «أحمد» هكذا منذ دقائق في الهاتف، أرجعت فكرة أن وزنه الزائد قد يكون سببًا في تلك الثقة العمياء التي أحب أن يظهر بها، لا انتقاص فهو شرقي حتى أنفه، وجربت أن تسأله بعدما أفرغا من العشاء عن أحواله لكنه فضل أن يحدثها بسخرية عن مصر والمصريين.

- ما بك أحمد؟ قد بدوت لي على غير عادتك! أتمنى أن لا أكون سببًا في هذا الضيق الذي أشعر به.

- هااا؟ الضيق قلتِ؟ (قالها بتعالٍ آخر) لا حبيبتي..أنا سعيد فقط لأنك هنا، فأنا لا أستصيغ السعادة، ولستُ أفرح لها لا غير.

- متأكد؟

– قطعًا. هل هناك ما هو أجمل من أن تكون بحضرتك حساسة جميلة مثلكِ؟

فيما هو يحاول أن يمسك يديها تحس بتكرهب شديد يعتريها..تسحب يديها وتسأله الانصراف بدعوى أنها تأخرت.

في السيارة، هي وهو.. والصمت الفسيح ثالثهما، ينظم إليهما «عبد الحليم» مرددًا بحزن:

«ضي القناديل.. والشارع الطويل..فكرني يا حبيبي.. بالموعد الجميل».

على الطرف الثاني من يديها هاتفها الذي يرن، أخفض صوت المذياع كي يتمكن من سماع المتكلم، لعله رجل.. رجل آخر ستواعده في الساعات القادمة، فيسبوكي ليس ببدين ولا يشعل سيجارته حتى يراها تحترق.كانت «رضوى» على الخط، ولأنها صديقتها الفيسبوكية المخلصة التي تعرفت عليها أيضًا من أسلاك الهاتف فكان الحديث كما عادتيهما أن يفعلا.. من فرنسي شائك إلى مصري متلعثَم.

هو لم يفهم إلا أنها قضية خيانة.. وهي ليست تستوعب قط ما يجري برأسه.

بعد أن انتهت من المكالمة لم يسألها عمن حدثها، لكنه أهداها شريحة للاتصالات كانت بحوزته،قال إنها ستحتاجُ إليها، فهي معبّأة ولن تحتاج كروتًا للشحن.. وقبل أن تنزل

استخرج من سيارته كيسًا بلاستيكيًا به من لوازم الاستحمام الكثير، عطر وفرشاة أسنان وفوطة.

شكرته كثيرًا على لطفه وضربا موعدًا آخر لتكتشف سِحرَ مصر على يديه.

*****

لم تكنْ الأحوال جيدة. على الطرف من سرير سحر أمنيات بأن يتصل زوجها، الذكريات تدفقت مجددًا بخلسة لص محترف، تلك القصة أبدًا لا تُنسى، وذهاب «إبراهيم» فتحَ جُرحًا غائرًا آخر، كادت أن تمحي تلك الحقبة من حياتها بالذات..لم تروِ قطّ هذا لـ «إبراهيم»، كيف بإمكاننا أن نحكي لأزواجنا عن الماضي، وأن نسرده بكلّ دقة، بكل حيادية ومصداقية؟ ليست كل الزوجات تفعل، وقد نصحتها «مي يامنة» ذات ليل: ماضيكِ ملك لك، فلا تقتسميه مع مستقبلك أيًا كان السبب.

وها هي ذي لم تفعل، ولن تقتسم مذ ذاك العهد المؤلم شيئًا، ماذا كانت ستروي له؟ إنهم للأسف لا يتقبلون أن ينسلخوا لدقائق من ذواتِ الزوجية لذوات الصداقة حتى يستمعون إلى تلك الحكايات المكلومة، ربما منها القاسية ومنها المخزية.. ومنها المحرقة لأمكنة متفرقة في الروح والذات، فيسهل علينا المواساة والمداواة، تحتاج امرأة لأذن تسمع تلك الآلام

وتمتصها كإسفنجة.

وسحر كانت تخاف عصبية «إبراهيم»، هي فقط من كانت تجعلها ترتعد منه، تخافه دائمًا من أن يقترض من حكاياتها ما قد يجعله يسبّها ويشتمها يومًا ما!

أن تكون الحقائق المرواة ذات ليلة سببًا للقدح في مواقف خصام، يستند الزوج حينها لماضي زوجته كي يُبسط رجولة أخرى..سلاحًا للدمار الشامل فيتمكّن منها ويُسكتها بإفحام إلى حين.

ويعرف أن النزال بذلك الشكل مهين جدًا، لكأنها أحست أن ذاك اليوم سيأتي لا محالة، ولأنها أخفت عنه قصصها التي من حقها امتلاكها وحدها، فإنها كذلك قد جنّبت نفسها تلك المواقف المحبِطَة والمخذلة أحيانًا، والتي من الصعب جدًا على سحر تجاوزها..فهي إذن لم تعط لزوجها السلاح الشائع الذي تسقط ضحيته غالبية الزوجات، بل اكتفت بالصمت، وتجاوزها الهدوء والصمت لأن تكتب، لأن الكتابة تشكيل مزيف للحقائق بأبطال نُقحمهم عُنوةً، وهي وإن لم تقدم لـ»إبراهيم» ماضيها ملعقة من ذهب فقد أهدته كتاباتها، كتاباتها التي تتجول فيها عارية هي ملاعق من ماس.

الساعة تهرول، و»معتز» يمتص من نهديها رحيقًا مخذولاً، يُقال إن صبيب الحليب يقل تماشيًا مع نفسية النساء، وذهبت

الكثيرات أنه يتأثر، فكأن شحنات الغضب أو السعادة تُغير من طعمه، فيصير حلوًا بالفرح ومرًّا بالحزن..تلك الحكايات التي كانت تسمعها من نساء الحي جيرانهم ما كانت تدخل أفكارها إلا لتزاحمهم، هي تؤمن بمنطق علمي تجريبي،لكنّ «معتز» بكى كثيرًا هاته الليلة ولها أن تصدق كلّ الخرافات التي لا تستند إلى دليل علمي.

ولا أن تصدق أن أباه يمرّ بمحنة ما، وأي محنة ستكون والساعة تدق أبواب الخامسة صباحًا؟! وضعت ابنها في سريره وارتدت سترتها السوداء وارتمت في حضن الشرفة والبرد، تنتظر أن يؤذن الأذان لتتضرع بعد صلاة الفجر، أن يلهمها رب العالمين بعضًا من الصبر يقتات به صدرها المكلوم.

في الغرفة الأخرى، حرقة عارمة في رأس «إبراهيم»، الذي لم يتقبل منطق الخيانة بتلك السهولة التي اصطيد بها، ولم يبلع ضعفه بسهولة، كيف له أن يفعل ما فعله؟! لم ينتظر من نفسه قط أن يستوي بجموع الرجال الذين كان فيما مضى يمقتهم ويتحسر على حالهم، حتى جوزيف يا رجل قال إنه لم يستطع أن ير امرأة أخرى تشبه «ميري»، ورغم أنهما على وشك طلاق وفي خصام دائم لكنه ظل وفيًّا ينتظر قرارها الأخير بالعزوف عما تفكره فيه، أو ربما فكر في حل وسطي، لكنه ينتظرها في حضنه دائمًا ويستحيل أن يقرب

صدره جسد امرأة ولو فاقت «ميري» جمالاً ودفئًا.. وضع نفسه في هاته المقارنة، فاضمحلّ واستاء، وهو يتقلّب في السرير بلا نوم تسقط ورقة صغيرة من جيب «البيجامة».. ورقة قد كُتبَ عليها بخط سحر:

«الصباح لم يُخلق إلا يوم أحببتني..
كل تلك الأيام التي كانت قبلك كبيسة والليل كان يأتي
بمعطف الشمس لا غير
وصباحُك أنا، والسحر ينقلبُ على الساحر».

هاته العادة التي قطّعته أشلاء، يالله! لم يكن ينتظر منها تذكارًا على دناءته، فقد عوّدته سحر في كل سفر أن تكتب له خواطرها وتبعثرها في جيوب ملابسه.

كأن تكتب: «وبحق كل تلك النجمات المتواريات في السماء..اشتقتُكَ».

– عندما يلمّ بك هذا الصداع الغبي، تذكر صوتي واقهره بحبنا وفُز عليه..فالحب يهزم الأغبياء.

– تذكر طيبتك حبيبي وابتسم وارتقِ، فالقعر مليء حد التخمة بالجاهلين.

– اشتدي يا أزمة تنفرجي..رددها يا عمري دائمًا فإن مع العسر يسرًا.

يجدُ روحها تخاطبه أينما حلّ وارتحل، وبالعادة تأتي رسائلها المدسوسة بترياقة عاشقة مخلصة كما البلسم، بل علّ حدسها خطير كي يطابق تلك المواقف بعينها، فتُفنّد هي بذلك كل الفرضيات التي تستند على المسافات، فالبعيد عن العين ليس بعيدًا عن القلب، فالحبيب في القلب قرُب منا أو بَعُد، وفي العين دامت العين ماهي إلا شاشات تعكس أخبار قلوبنا الجوية.

استبدّت به كلماتها تلك التي «والسحر ينقلبُ على الساحر»، أو بعبارة أخرى هو انقلب عليها فبهتَ الذي كفر.

فهي لم تَرهُ، لكنّ «لين» والخمر تواطآ..وحتى لا يلقي بنفسه كثيرًا في بركة الذنب والضمير أقنع نفسه أنه رجل.. والرجل رجل، يوجد ما في الذكور ما يوجد في الرجال.

ما العيب؟ تذكر خصامهما على اللاشيء، تذكر صمتها.. تذكر أنها لم تسلم عليه، أنها لم تُلقِ بجثتها عليه..لم تأتِ راكضة للباب.. تذكر أن يلفّق لها التهمة وأن تكون أداة الجريمة والجريمة والدافع..صدّق كلّ البراهين المرجوعة عليه، كل الخزعبلات..حكم لنفسه بالبراءة،انسجم مع ذاته.. وفكر لو يصدح في النوم: يحيا العدل..يحيا العدل!

ونام في سكون.

*****

«في منتهى القلق، أغمسُ دموعي في محبرة الصبر.

في تجاويف الصدر تنتحر آلاف المساءات الضاحكة.. تُغتالُ المواعيد الخائبة وتردي الحروف أسيرة شهقة متخاذلة.

يا الله! يا الله! كمْ يشق في قلبي هذا الغبن! كمْ يؤلمني وخزُ قلبي عليه! يا الله! هذا الحب مضغة يقطع حبل المشيمة.. يصرخ أنّ لك أن تهبني من لدنك آهًا كافية ليخمد هذا الاشتعال.

يا الله! أنا ألعن شيطاني هذا السبعين ألف مرة.. واخزه يا رب،اخزه.. إنه يوقظ الذكرى.. والذكرى يارب تنفع المؤمنين، يا رب ذاكرتي تقض مضجعي، يارب تلك الأسماء تنخر عظام الوجع.. وبين يديّ ليل والليل ياربي خاطره مكسور، اجبر يا الله آلامي المنقلبة عليّ واقض بلطفك يا الله».

وكانت تبكي، والشهقة تليها أخرى، وتكتب ما دعت به ربها سرًّا وجهرًا.. هكذا وهي تبكي، في الشرفة التي لم ترها إلا لمامًا في حالة كتلك..أصيص النعناع يراقبها في شحوب.. وبيروت في الفجر كامرأة غاوية، ليل متعبٌ يسحب ملاءة الصبح على مضض.

بكتْ، بكتْ كثيرًا كتلك الحالة أو أشد، استعاد ذهنها نفس المشهد.

المكان: القاهرة..تحديدًا شرفة الفندق.

الزمان: ثلاث أيام على قدومها مصر..

١٤ يناير عيد الشرطة!

في تلك اللحظات التي هرم فيها التونسيّون، وخرج آلاف الثوار في تونس إلى شوارعها وانتفض الفقراء والمقهورون في البلد..كانت مصر تنتفض في الفيسبوك صفحة صفحة، أما في فندق رمسيس..الحياة الجميلة، والابتسامة لا تفارق وجهها..الاستقبال جيد والمؤتمر متوجّس، إلا أنه مستبعد تمامًا أن المصريين قادرون أن يجابهوا حاكمها، أو أن يأتي لسانهم عليه بالسوء، في الأخبار أنباء عن قتلى في تونس ولا شيء يدلّ على أن الأمور ستسوء.

في ميدان التحرير اجتمع آلاف من الشباب الذين قدموا حجاجًا يلبون دعوة الفيسبوك ليوم منتفض، كانت القنوات في الفندق شبه مُغيّبة، الدكاترة والباحثون من كل دول العالم قاطبة تتداول أحوال استفحال مرض الإيدز وتداعياته، الثالوث المحرم..الجنس والدين والوطن.

في تلك اللحظات ليلاً، لم يستسلم الشباب، الفندق بقي على حاله بالرفاهية والشارع وقد ملئ دمًا.. في تلك الليلة. أتاها «أحمد» للفندق بيده المليئة دمًا، وجهه..عيناه..في حالة إعياء قصوى.

الفندق لم يدعه يدخل حفاظًا على أمن العاملين وسلامتهم،

اضطروا أن يبلغوا سحر عن وجود صديقها في الشارع.. الحارس على الباب الأنيق قد أوصاها أن مظاهرات عنيفة موجودة وأن لا يغريها الليل، فالأوضاع مهتزة.

اندهشت سحر من جثة «أحمد» التي بدت مفزعة وصادمة، أخبرها أن الوضع في البلاد صعب جدًا وأن العديد من أصدقائه وقد دُهسوا تحت الشاحنات، الأمن قد احتفل بهم في يومهم.

– كيف ولا أثر لذلك الخبر في الفندق؟ تساءلت بذعر.

– هنا العديد من ممثلي أمريكا نزّال الفندق..أنتِ بأمان ولستِ بأمان في الوقت ذاته..البلطجية يا سحر في كلّ مكان؛ أخاف حقًا عليك.. تلمعُ عيناه ألمًا عميقًا.

– يارب سترك يا رب..لم أتوقع أمرًا كهذا!

– ولا أنا،(بخفت ردّ.. أخذها في حضنه وقال): كل شيء سيكون على ما يرام ويسقط النظامْ، لا إله إلا الله.. مودعًا إياها.

– محمد رسول الله.. أحمد..أحمد.. أحمـــــد!

وضاع في عُتمة الشارع.

صفير السيارات والأمن المركزي بدأت تعلو، حالة من الارتباك حلّت أخيرًا على العاملين بالفندق، لحظات قبل

الكارثة.

لا أحد وسط قاعة العشاء قد فكّ اللغز، ما هي إلا ساعتان وانقطعت الكهرباء، خدمات الإنترنت كذلك، لا شبكة اتصالات.. وعمّ الذعر.

بالشرفة تنظر إلى دخان متصاعد في وسط هاته القاهرة،أشياء لم تصدقها إلى يومنا..لقد شهدت الثورة في مصر !

فصل البداية عن النهاية

الفصل الثامن

«أنتَ وحدك..أذقتني نشوة الظمأ إلى الأسرار القلبية بما دفنته خلفك من الرجال
وأنت وحدك.. أريتني جمال الشعر في خيالاتي العطشى الحالمة أبدًا على نهر النور من همسك
وأنت وحدك، تظل –رغم طفولتي واستياء الحزن بعيني، ورغم شر الجغرافيا وبؤس تاريخي.. ورغم كلّ شيء– أكتبُكَ «وحدك» فينبعث لي اسمك من ذاك الحلم..الحلم اللذيذ الذي أهرب إليه»

لن أنسى ما حييتُ يومَ اتصلتَ من لبنان تحييني على مداخلتي بالراديو، كشاهدة مغربية على أيام الثورة بمصر، كنتُ أسردُ تلك الأحداث وأنا مرتجفة، تخنقني الكلمات والصور المشتتة على أرجاء الذاكرة.

ما عساي أقول؟

لقد احتلَّ البلطجية الفندق وعلَتْ حالة الاستنفار في البلاد، وحظر التّجوال والسفارة المغربية التي اعتذرت عن عدد الطائرات التي لم تكن كافية لنا، كانت خاضعة لمعايير أخرى، وكانت إجراءات أخرى في الطّوارئ، نعرف مدى تمكننا من السيطرة على الأوضاع.

فضلتُ أن أنزل مع «أحمد» لننقذ الثوار في كل الشوارع.. كان الضمير المهني ينادي بأقوى صوته ولم ألتفت للبعثة هناك ولا للدكتور حسنات الذي هددني بالطرد من المصحة، ساعتها تساوت الحياة في نظري والموت، ووجدتُ في المصري أخًا آخر يستجدي من يضمد جرحه ويقيه من إغماء القنابل المسيلة للدموع..اختفيت عن المسؤولين الذين لم يبحثوا عني كثيرًا، تساوى كذلك وجودي من عدمه.. فالوطن خرافة جغرافية وضعنا حدودها باللامنطق، رقعة بلاد كبّلنا ذواتنا بها أقنعنا أنفسنا بوجودها.. وصرنا نتقاتل ونحن في الأصل «إنسان» عربي.

نعم..لقد حكيتُ عن انتهاك حقوق ذاك الإنسان هناك، عن التعذيب الذي رأيته في اليوم العاشر من الثورة، وتحديدًا حين اعتقلنا الأمن ووجدوني دونما هوية:

– مغربية يا روح أمك؟! وبتعملي إيه هناك لما إنتي جيتي مؤتمر؟!

– إنتي جاسوسة!

– لأ تلاقيها جات دعارة ودلوقتي عاملالي فيها دراما وبنت شريفة.

هاته الكلمات الحارقة كانت لتكون في بلدي، فالظلم في بلاد العرب واحد والإهانة واحدة تتلون باللهجة وتستقيم بقلب

فظ لا يحسن إلا الكراهية،ثمّة رجال أمن تحسبهم من شدة ظلمهم أنهم بقلوب صدئة، وبعضهم وقد زرع الله في قلوبهم ذرة إحسان، فتراني وقد أجهشتُ بالبكاء أهذي:

– لولا الرحمة التي بقلبي لما تركتُ طائرتي لأداوي من تقتلون فيهم، لا بلد لا وطن..هؤلاء إخوتي وهؤلاء إخوتي.. الرحمة الرحمة.

أخرجني العقيد «بهجت» بعدما حيّاني بعبارة صامتة كانت عيناه تربت على كتفي، حتى «رضوى» كانت تبحث عني كالمجنونة في الشوارع، تلك الباريسية المنتشلة من عصور كليوبترا، حفيدة الجمال عريقة الأصل.. عرفتُ معنى أن تكون فيسبوكيًا صالحًا ومعنى أن تقوم بتحديث ذاك المثل من الزمن العتيد: «فرب صديق ولده لك رحم الفيسبوك».

أما «أحمد».. فقد ظلّ غموضه يساورني حتى في قتاله.. لم أذكره..لا أبدًا لم يتبق لي منه سوى صورته جريحًا وأخرى متكبرًا في أول موعد.. بقي لي كهفوة استفقتُ منها حين قال ذات شرود أن زوجته «شيماء» في البيت تنتظره! متى تزوج؟ كيف؟ وهل يعقل أن نكذب ونخفي أمر زواجنا بتلك البساطة؟ لا أدري..كان من الصعب أن أتقبل فكرة أني كنت صديقة رجل متزوج، كجريمة لصيقة بأيادٍ بريئة.

مسحتُ رقمه وحاولتُ أن ألملم تلك الصدمة الثانية، تلك

الصدمة التي تعيق كلّ شيء فيك وتشلك عن الحركة..لحسن حظي كانت «رضوى» بجانبي، كانت لتخفف وقع الحدث المستجد.. وكان عليّ أن أثور على نظام الذكور، وأن أقلب حسابات طيبتي الحاكمة، تركت جموع عواطفي لتزيحني من عرشها واستسلمتُ.. وأنا أيضًا،لم أكن أنتوي أن أُرشح قلبي للمرة الثانية.

وكنتُ من سفارة لسفارة، ومواعيد الطائرة التي تخذلني كل مرّة، تاركةً المصريين على كلمتهم ماضين مُصرّين.. وتركتُ المعز لدين الله الفاطمي مجنون الحكم يتقلب في قبره ويحمد الله أنه لم يشهد عصرًا كذاك.

كنتُ أروي تجربتي اللاموضوعية التي ما ظننتها سترسى على غير ذي برّ، سافرتُ كسِحرٍ وعُدتُ كتعويذة مفقودة الأثر، بلا روح ولا قلب، كما لو أنّ لعنةً قد عصفت بي.

كل شيء انقلب، يقولون قديما إن لا خير في امرئ لم يجُلْ. ولا خير في امرئ لا يشاطر أحزانه..لا يحكيها لا يكتبها، والساكت على الأحاسيس شيطان أبكم.

وقد رجعت إلى بلدي تستقبلني البطالة..لومُ أهلي..يستقبلني موت «ماجدة» بحادثة سير.

تشرّدتُ.

راقبتُ الهمّ كثيرًا..انطويتُ على نفسي، ولم يخمد الجرح

بجرحٍ، ولكم تمزّقتُ فوق قبرها! وعدتُ مكلومة الأعصاب معطوبة الجوارح، دفنتُ أسراري الصغيرة بجانبها وبكيتُ حتى سقيتُ جنبات قبرها، دموعي عليها كسهام نار..ما تركتني هكذاأبدًا..وأنا التي كنت فارّةً من أحزاني لدفء ابتسامتها، لتعيد لي رُشدي! لكأني أتيتُ لها ببدلة الرقص، ورقصتْ كثيرًا في الموت..رقصتْ كثيرًا على كل بساط قلبي..حتى آلمني كعبها المكسور.. لحبيبتي التي ذهبت.

على الراديو، صوتي كان حزينًا بما يكفي، حزينًا على الحب والخديعة، حزينًا على الـ «ماجدة»، حزينًا على الظلم والطغاة.. حزينًا جدًّا..عليّ.

باغتني صوتٌ حانٍ، اتصال هاتفي.. «آلو! برنامج «حكاية الناس» على أثير «ناس راديو» من معي؟».

– مساء الخير سيدتي، معك «إبراهيم» من لبنان..في الحقيقة أنا مستمع وفيّ لهذا البرنامج الأكثر من رائع، رغم أن اللهجة كثيرًا ما تخونني لكنّ أصوات الحكايات المتسربة في جوف هذا الليل مغرية.. قصة سحر كانت حكاية أخرى للصدف، وأنا أهوى الصدف وتلك المغامرات والآلام التي عاشتها لا تتكرر، أريد أن أقول لتلك السيدة الجميلة التي رأيتها بقلبي أنكِ سيدة النساء وأكثرهن رقة، فأنتِ آثرتِ تضميد الجرحى بدل أن تنضمي للبعثة وتغادرين القاهرة بلا أدنى مشقة، أحييكِ من القلب سيدتي!

وقبل أن يصمت ويعمّ الشوق أرجاء الاستوديو..استطرد قائلا: سيدتي سحر، لا تنسي أن تحيَيْ!

ما زال رنين صوته الذي أصابني بقشعريرة، صوته الوسيم أخمد تلك النبضات.

نعم ذاك اليوم، أخذ رقمي من الاستعلامات الخاصة بالإذاعة، لم يمض الكثير من الوقت فوجدته يحدثني من المغرب، لم يقلّبني كثيرًا في ذهنه حتى يفاتحني في الزواج..لا أبدًا. قال: بل يُسعدني أن تكون لي زوجة مثلك،أنتِ من أبحث عنها!

أحببته جدًا بعدما استعصى عليّ فهم كل شيء، قد قبل بالخلاء المليء بفوضى الأحزان، قد قبل التحدي، وأنا قبلته دونما شروط..احتجتُ كفّ قلبه لأستطعم الحياة من جديد.

*****

يومان، اصطاد فيها «إبراهيم» كثيرًا نفسه، في بحر الندم.

وأخيرا..اتصل.

كان صوته ناعمًا متصاغرًا ذكّرها بيوم الراديو، لم يلوما

بعضيهما، بل كان الشوق يستبق الشوق، بعض منها اشتاق إلى بعضه لديه.. فنسيا العتاب..

علامَ ستلومه؟ علامَ تُحاكمه؟ الحدس والشك وحدهما لا يكفيان ليتورط!

علامَ سيحاسبُها؟ ألتجاهُلها أم لتلك الاعترافات المطوّقة بالإبهام في قصصها؟ الملل الزوجي والكتابة وحدهما لا يكيفيان للإدانة!

نعم لقد نسيتْ.

لقد تقبلت مبدأ الأولويات وأقنعت نفسها أن العمل «ضرة» لها، لقد تنفّست مع الذكريات مقارنة الماضي، تلك الأيام القاسية التي عاشتها، لا شيء يعادل بيتًا وزوجًا وابنًا ورفاهية تحلم بها كل النساء.

ورغم أن الشك ظل يساورها، شك الخيانة..أشياء كثيرة كانت تقول إن «إبراهيم» لا يفعلها أبدًا.. وأشياء كثيرة كصوته المرتجف الحزين كان يخبرها بتصاغر نفسه فيه، فلكأنه يطلب الصفح دون أن يطلب.. ولكأنه يتوسل بلا تسوُّل.. ولكأنه كان يعترف أنه خانها، لا هو أنكر ولا هو اعترف.. هي أشياء لا تُقال ولا تُحسّ.

ورغم أن حرمانه منها قد أذهله وضيّعه، أشياء كثيرة كانت تقول إن سحر لا تملّ منه أو تكلّ أبّدًا.. وأشياء كثيرة كتفانيها

بالاهتمام به..كحزنها الماضي، كآلامها..كوعد قطعه على نفسه ذات يوم ارتباط بأن لا يهينها، ورغم أنه فعل وما فعل، وبما أن القلم دمّر شرقيته فقد اجترّته الصدف بحرفية ليسقط في شباك الخديعة.

*****

الذكرى:

قلبٌ يختبئ داخل عقل.

فالذكرى تُحس وتتألم وتكره، والذكريات تأتي بمقارع من حديد تدق أجراس اللحظات، وكأنها توقظنا من سبات ما، للذكريات عطور تأتي بها، صور تتحدث وتبكي..تُعانق..تُقبّل..تأخذك بالأحضان..تدفئُك وتستريح منها ومنك.

الذكرياتُ أجملها تلك التي تضعنا أمام الاقتناع بجمال ما نملكه، إنها لا تتردد بإخبارنا كم نحن سعداء بما نحن فيه الآن، فالألم يصحو لنستوعب أن لا آلام ذاتها تُعاد..قد خفت أو ربما زالت.. والفقر يحكي لنا مدى ثرائنا بما نملكه.. والوحدة تجعلنا نقيم للمحيطين بنا.. ألف اعتبار.

فـ «ماجدة» رحلت وحلّ «إبراهيم» سريعًا حيثما كانت سحر تستظل، والبطالة تذوقتها كي يطعمها الله رزقه، والسفر لتعي

جمال الاستقرار.. نحن نتذوّق أمانًا في الذكريات بالرغم من مباغتتها، بالرغم من فتح الجرح مرة أخرى..ففي جراحنا رصاص حيّ لا يلتئم إلا باستئصاله.

والحق أنّ «إبراهيم» قد كان يعرف ملَكة الكتابة عند سحر، بل هي ما قرّبته إليها لإيمانه الشديد أن كلّ مُحتكّ بالكتابة إنسانٌ طيّب في الأصل، الكاتب ملاك يحرس الحروف الغافية، فكيف يكون الإنسان وقد امتهن مداواة الآخرين وسهر على راحتهم بل وحمل أوجاعهم في همّ كتاباته؟! هو ملاك مُضاعَف متضخّم بالعفوية والطيبة والذكاء، حساس شرس ومدافع عن الحياة إلى أقصاها،فلا يذكر أن استاء من تلك الموهبة، لكنّ شرقيته قد أبعدت القلم عن بيته عن سبق إصرار وترصد، يعرف أن أرق الكتابة دافع لليأس والموت على شرفة الكلمات ينفيه وقلبه لأبعد نقطة، لا يترجى منها غير أن يكون الأوحد في قائمتها حتى وإن أقصاها هو.. البوح بهاته الأشياء صعب..لكنّ سفرية مصر جعلته يعصف كثيرًا بقراراته، أن يخلص بنفسه لنفسه..أن يفكر بقلبها بدل عقله..أن يفعل ما تراهُ يُكفِّر له عن شنيع صنيعه..أن يقرأ كلّ كتاباتها القديمة وتلك التي خبأها في محفظته بإتقان قاتل قبل السفر.

قرّر أن يفتش عنها بين السطور وأن يحبها من جديد.

في اليوم الرابع، اتصل بها يخبرها بموعد سفرها إلى مراكش

حيث أهلها، قال إنه سيطيل مكوثه في مصر، كل شيء جاهز، التذاكر وجوازات سفرها ولها أن تسحب ما سيكفيها من نقود لها ولـ «معتز».

اهتزّت أحشاؤها ولم تلمح فقط غرابة القرار، كاد صوتها السعيد يفضحها، ولقد فعلها بلا شك.

*****

في مرّاكش، تستعيد البهجة استقبال الفرح.. وتستهزئ الذكرى من الافتراضي والسمراء والبيضاء.. ويبدو كأس الشاي العملاق راقيًا بابتسامته المحلّاة.. القردة لا تتبوّل على السياح إلا لجلب سعْدٍ منتظر، والشمس تسكب عطرها لافحًا في وجه الرجال السبعة.

قد فكّرت أن «إبراهيم» وقد أغدق عليها بحلم كهذا، لعله أدرك أنها كانت تحتاج وقفة هي الأخرى مع ذاتها ونفسها وقراراتها، حيث الإنسان ابن بيئته، وحيث السحر لا يأتي إلا من نخيل بريء كهذا.

صوت «إبراهيم» من جديد على الهاتف، يخبرها أن تذهب لمقهى «بيروت»، هناك شخص عليها أن تلقاه.

في ذاك المقهى المعلق في الحب.. وجهُ «إبراهيم» يلمع

شوقًا وعينا سحر أشلاء تتهافت لتقبّل كل شيء فيه، وفي يديه كُتب بغلاف أنيق يميل للأزرق بخط رفيع موقّع باسمها:

تجليّاتٌ أدبية

«بعضُ الوقت..قد مرّ»

«سحر الفاطمي»

الفهرس

قصة قصيرة 9

الفصل الأول 21

الفصل الثانى 29

الفصل الثالث..41

الفصل الرابع..77

الفصل الخامس 101

الفصل السادس 117

الفصل السابع...................................... 123

الفصل الثامن 159

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :
kayanpublishing
kayan.publish
kayanpublishing
kayan_publishing